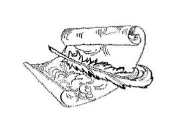
الأعلام من الأدباء والشعراء



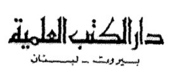
أبو الطيب المتنبي

نشيد الصحراء الخالد

إعداد

محمد يوسف فران





دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء



إعداد
محمد يوسف فران

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

مقدمة

استجابة لرغبة طلابنا في وضع دراسة ميسرة عن حياة أبي الطيب وشعره أعددت هذا الكتيب المتـواضع تـوخياً للمنفعة وإرادة في أن يكون لنا دلو بين الدلاء في خضم لجة المتنبي، المترامي الأطراف والبعيد الأغوار.

وقد قسمت العمل في هذه الدراسة إلى ستة فصول تطـول وتقصر حسب مقتضى الحال.

ففي الفصل الأول تحدثنا وبشكل مختصـر عن عصر المتنبي. وفي الفصل الثاني تحدثنا عن أبي الطيب منذ أن أبصر النور في الكوفة إلى أن حط عصا الترحال بالقرب من دير العاقول في العراق، بعد أن كان عائداً لملاقاة من يحب في بغداد.

وفي الفصل الثالث تحدثنا عن الأهمية التي لاقاها ديوانه إلى أيامنا هذه، مع ما ينطوي عليه هذا الديوان الضخم من شعر، بحيث انقسم الناس حوله ثلاث فرق، فرقة تتعصب له، وأخرى تتعصب عليه، وثالثة قد آثرت الإنصاف.

والفصل الرابع تحدثنا فيه عن فن القصيدة عند المتنبي وألمحنا إلى أنه في بنائها كان يعتمد على وحدة البيت ووحدة الموضوع في آن معاً، وكان ذلك من خلال قصيدتين، الأولى، وجدانية، في رثاء جدته، والثانية أول قصيدة قالها في مدح سيف الدولة، وأشرنا خلال ذلك إلى الفارق في الأسلوب بين هاتين القصيدتين.

وفي الفصل الخامس أجرينا عرضاً لبعض آراء الأقدمين والمحدثين من الأدباء والنقاد.

وأما في القسم الأخير فقد عرضنا بعض نماذجه الشعرية.

وليس لنا في النهاية إلا أن نشير إلى أمر مهم وهو أن الرجل الذي شغل الناس وملأ الدنيا طيلة أكثر من عشرة قرون، ولم يوفّ حقه من البحث، لا يمكن أن يكون عملنا على شعره نهاية للمطاف وحسماً للخلاف أو مبدأ للإنصاف.

النبطية في ١/٢/٨٩

محمد فران

عصر المتنبي

١ ـ الناحية السياسية:

إن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين سنة ١٣٢هـ ـ ٧٥٠م، قد خلق في حياة الناس السياسية تحولاً جذرياً هاماً. ذلك أن الأمويين كانوا يحكمون الناس بتأثير من العصبية العربية العرقية التي كان يغلب عليها طابع البداوة التي تمثل، من قريب أو بعيد، امتداداً طبيعياً لِمثُلُ الجاهليين العليا. وأما العباسيون فقد جعلوا دولتهم إسلامية جامعة لجميع الأجناس[1] وخصوصاً الذين عاونوهم وشدوا من أزرهم في عملية التخلص من الأمويين. وإذا كان العباسيون قد اعتمدوا هذا المبدأ فقد آثروا إبعاد خصومهم الذين كانوا يظنون أن الخلافة ينبغي أن تكون فيهم وراثية فنشأ عن هذا الأمر تياران: تيار الذين يدعون إلى المتحدرين من ولد علي بن أبي طالب من فاطمة بنت النبي محمد ﷺ ويناصرهم في ذلك الفرس وعرب الجنوب، عامة. وتيار العباسيين ويعضدهم فيه السنة والجماعة وأبناء

(١) عمر فروخ. تاريخ الأدب العربي، مجلد ٢ ص ٣٤،.

الدولة[2]، فتكرست في ذلك عملية شق العالم الإسلامي وبدأت منافذ التشتت فيه ولا تزال حتى بات على ما هو عليه من الضياع وفقدان الهوية الذاتية، عربية كانت أم إسلامية.

ولكي يستتب الأمر للعباسيين، أبعدوا في تنفيذ سلطتهم العنصر العربي واعتمدوا في الفترة الممتدة بين سنة (١٣٢ - ٢٣٤هـ) على العنصر الفارسي ثم تلاه العنصر التركي[3]. وتعتبر هذه المرحلة من أزهى عهود الدولة العباسية الأصيلة، وأما المرحلة الممتدة من سنة ٢٣٤هـ إلى سنة ٤٤٠هـ فهي مرحلة عصر الدويلات التي انتشرت على ربوع الدولة العباسية الإسلامية وقد أخذت كل منها تنازع السلطة المركزية في بغداد القوة والسلطان ولم يعد للخلافة إلاّ الاسم، وصار رؤساء الجند يتلاعبون بالخلفاء ويقتلون من يشاؤون ويولون من يشاؤون[4] «وقد بدأ استعلاؤهم بقتل المتوكل» سنة ٢٤٧ هـ فزال عن الخلافة زهوها وسلطانها[5]. ومن هذه الدول التي استقلت ذاتياً عن مركز

(٢) م. ن مج ٢ ص ٣٤.

(٣) م. ن مج ٢ ص ٣٤.

(٤) محمد علي طباطبا. الفخري في الآداب السلطانية ص ١١١
أحمد أمين. ظهر الإسلام. ج ٢. ص ٢٥٠
ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٥.

(٥) عمر فروخ. م.ن مج ٢ ص ٣٦.

الخلافة، وإدارياً، الدولة الصفارية (٢٥٤ - ٢٩٦ هـ) في فارس، وقد قامت بعدها في فارس أيضاً الدولة السامانية وامتدت إلى ما وراء النهر(٦).

وفي مصر قامت الدولة الطولونية (٢٥٣ - ٢٩٢هـ) التي استقل بها محمد بن طغج ولقبه الخليفة العباسي الراضي بالله بالإخشيد(*). ولكن الإخشيد هذا لم يلبث أن امتد حكمه إلى الشام والحجاز. وبقي على سدة الدولة الإخشيدية حتى وفاته سنة ٣٣٤هـ فخلفه مولاه كافور، وبعد وفاة كافور استولى الفاطميون على مصر سنة ٣٥٨ وبسطوا سلطانهم على الحجاز ومعظم الشام(٧).

وفي الموصل أسس ناصر الدولة الحسن بن حمدان الدولة الحمدانية سنة (٣١٧هـ - ٩٢٩م). وفي سنة (٣٣٣هـ - ٩٤٥م) سار سيف الدولة علي بن حمدان وانتزع مدينة حلب من أيدي الإخشيديين وأسس دولة من أزهى الدويلات في التاريخ العربي، كما دافع عن الخلافة وحارب الروم وهزمهم في معارك عديدة. وأنشأ في حلب بلاطاً جمع فيه رجالاً عظاماً كالمتنبي وأبي فراس وأبي الفرج والثعالبي

(٦) عبد الوهاب عزام. ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ص ١٤.
(*) الإخشيد، بالفارسية: السيد.
(٧) عبد الوهاب عزام. م.ن ص ١٥.

وابن خالويه والفارابي. وقد كان سيف الدولة نفسه أديباً وشاعراً ومحباً للأدب وكلفاً به[٨].

على أن الدولتين، الإخشيدية والحمدانية كانتا على طرفي نقيض وهما تختصمان على أواسط الشام، فمرة كان يمتد حكم الحمدانيين إلى دمشق ومرة يتراجع إلى حمص[٩].

وأما الدولة البويهية، فقد تمكن عماد الدولة، عليّ بن بويه من منازعة مَرْدَاويج وإقامة الدولة سنة ٣٢٠هـ. ثم جاء معز الدولة، أحمد وسار إلى بغداد واتخذ لنفسه «لقب أمير الأمراء» سنة ٣٣٤، «ثم خلع الخليفة المستكفي وسمل عينيه واعتقله إلى أن توفي بعد أمدٍ»[١٠]. ولقد كان حكام هذه الدولة يميلون إلى العلويين ويعتبرونهم أصحاب الحق الشرعيين «لانتمائهم إلى الرسول الكريم فضلاً عن أنهم من سلالة يزدجرد الثالث آخر ملوك ساسان»[١١]. ولقد فكر معز الدولة أن يعزل الخليفة العباسي ويعين مكانه خليفة علوياً ولكن أصحابه نصحوه قائلين: «ليس هذا برأي فإنك اليوم

(٨) عبد المجيد دياب. أبو الطيب المتنبي، ص ١٠٤.
عمر فروخ. م.ن ج ٢ ص ٤٠٠.
(٩) عمر فروخ. م.ن ج ٢ ص ٤٠١.
(١٠) عمر فروخ. م.ن ج ٢ ص ٤٠١.
(١١) د. حسن إبراهيم حسن. تاريخ الإسلام السياسي، ج ٢ ص ٤٩.

مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك بأنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه»[١٢].

إضافة إلى هذه الدول التي ذكرنا، والتي كانت قد وضعت الأسافين الغلاظ في جسم الدولة العباسية، فإن هناك حركات سياسية محضة كانت تحمل الطابع الديني وأهمها الحركة القرمطية الرافضة لسياسة العباسيين. وقد أسس هذه الحركة سنة (٢٧٧هـ - ٨٩٠) داعية إسماعيلي من أهل الكوفة اسمه حمدان قُرْمُط، ثم لم تلبث هذه الحركة أن امتدت إلى شرق الجزيرة العربية وبادية الشام فكثر عبثهم في أيام رئيسهم أبي طاهر سهيما (٣٢١ - ٣٣٢هـ) الذي قطع طريق الحجاج ونزع الحجر الأسود من الكعبة وحمله معه إلى الأحساء. ولكن ابنه سابور رد الحجر الأسود إلى مكانه في مكة سنة (٣٣٩هـ - ٩٥١م)[١٣].

وقد لقيت الكوفة بلدة أبي الطيب أهوالاً من القرامطة، إذ أغاروا عليها سنة ٣١٢هـ وكذلك سنة ٣١٥ فهزموا في

---

(١٢) ابن الأثير، م.ن ج ٨. ص ١٧٧.
(١٣) عمر فروخ. م.ن ص ٤٠٤.

المرتين جند الخلافة وأسروا قائده يوسف بن أبي الساج كما اتجهوا إلى بغداد وهددوها ولكنهم لم يدخلوها. ثم عاودوا الكرة على الكوفة سنة ٣١٦هـ، ثم ان هذه المدينة المرموقة في هذه المرحلة بالذات من حيث مكانتها العلمية - إذ أنها كانت في العلم والأدب موازية للبصرة - قد هوجمت مراراً في السنوات ٣١٩هـ و٣٢٣هـ و٣٢٥هـ من قبل القرامطة الذين كثر مؤيدوهم في تلك الحقبة من الزمن[١٤].

إلى جانب حركة القرامطة فقد ظهرت حركات بعض الخوارج الذين غزوا الكوفة سنة ٣١٥هـ وخربوا أسوارها. كما أغار عليها بنو نمير وبنو كلاب وعاثوا بظاهرها فساداً مما اضطر أميرها أن يخرج إليهم فأسروه سنة ٣١٨هـ. وظلت الحال كذلك على حالها من الفوضى والاضطراب السياسي والقلق الأمني إلى أن عاد المتنبي إلى الكوفة وبعد رجوعه من مصر، حيث شهد غزوة من غزوات بني كلاب على بلدته ومسقط رأسه فشارك في حربهم، وتتصل بهذه الحادثة قصيدته في مدح دلير بن لشكروز[١٥].

(١٤) عبد الوهاب عزام. ذكر أبي الطيب بعد ألف عام. ص ١٧.
الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج ٨ ص (٨٢، ٩٠، ٩٣، ٩٥؛ ١٠٩).
انظر كذلك الكامل لابن الأثير في أمر حوادث القرامطة في السنوات الواردة الملاءة.

(١٥) عبد الوهاب عزام. م.ن ص ١٧.

وفي سنة ٣٢٢ وقبل أن يسجن المتنبي بسنتين ظهر رجل ادعى النبوة فتبعه خلق كثير وحارب من خالفه وقتل خلقاً كثيراً. «وفي السنة نفسها قُتِل في بغداد أبو جعفر الشلمغاني الذي ذهب مذهباً مغالياً في التشيع والتناسخ وحلول الألوهية فيه»[١٦].

ولقد كان لهذه المرحلة بالغ الأثر على نفس المتنبي لما لها من أهمية عظيمة في شحذ همة الفتى الناشىء وإذكاء مواهبه الفذة وعبقريته الجبارة التي جعلت منه رجلاً كالنسور القشاعم الذين لا يرتضون العيش، وهم يتحدَّوْن الشمس، إلّا في الأجواء النقية الصافية.

ففي ظروف هذا القرن، الرابع الهجري، ولد المتنبي فنشَّأته آدابه وعركته حوادثه، ورأى أن الدولة العباسية قد بدأت تتنازعها عوامل الانحلال وبدت عليها مظاهر الشيخوخة والعجز وخصوصاً خلال فترة حياته التي عاصر فيها كلاً من الخلفاء: المقتدر والقاهر والراضي والمكتفي والمستكفي والمطيع، وهؤلاء الخلفاء جميعاً لم يلقوا أي اهتمام من شاعر كالمتنبي لأنه لم ير فيهم ما يدعوه إلى تمجيدهم لخلوّ خلافة كل منهم من الرونق رضىً وتقوى

(١٦) عبد الوهاب عزام. م.ن ص ١٧.

واقتداراً، وذلك لزوال الطاعة عنهم على حد قول ابن الأثير أثناء حديثه عن حوادث سنة ٣٢٤ حيث لم يبق للخليفة غير بغـداد وأعمالهـا، والحكم في جميعها لابن رائق وليس للخليفة.

٢ ـ الناحية الثقافية:

لا شك أن العلوم، والآداب خاصة، تنتعش وتزدهر في ظل الاستقرار السياسي والأمني والعسكري والإقتصادي والإجتماعي وخصوصاً إذا تهيأ لمثل هذه الأمور رجال قادرون على رصد كل التحركات السلبية التي من شأنها أن تضعف سلطة الدولة وتقودها إلى الاندثار والتضعضع والزوال من ناحية وعلى تشجيع كل ما من شأنه أن يدفع بالإنسان إلى الإبداع والعطاء من ناحية ثانية. ذلك لأن الاستقرار يدفع إلى الاهتمام بما يؤمن للإنسان من رغد العيش ومتعة الحياة وسعادتها، فإذا ما تم للإنسان ذلك يلجأ إلى المتعة النفسية والعقلية والجمالية فَيَكْلَف بها وينميها فتزدهر العلوم، على أنواعها، وتنشط الآداب، ولكن هذا الازدهار والنشاط لا يتوقف إذا اضطربت الحياة السياسية في أي بلد لأن «نمو العلوم والآداب وازدهارها ثم ذبولها وجفافها يتقلب في أطوار بطيئة مديدة لا تساير الأطوار السياسية».

وإذا كان القرن الرابع الهجري عصر دويلات استقلت عن جسم الدولة الأم ولم يربطها بها إلا الاسم، فإن بلاطات هذه الدويلات كانت ملاذاً للشعراء والأدباء ورجال العلم

والفلسفة واللغة لما يجدونه فيها من تشجيع وتكريم فتفيض نفوس أولئك الشعراء والأدباء بمدح أمراء تلك الدويلات الذين يتنازعون على السلطة والنفوذ، وهم بحاجة ماسة إلى من يدافع عنهم بلسانه كما يدافعون عن أنفسهم بجميع ما يمتلكونه من قوى عسكرية وبشرية ومادية، فالشاعر لسان حال الأمير ومادحه ورافع اسمه بين الناس فيذيع صيته بعد أن يكون مغموراً.

وبتعدد الأمراء والملوك يتعدد الشعراء ويكثرون، ولكن كثرتهم في القرن الرابع الهجري لا تدل على جودة إنتاجهم، كما كانت الحال في القرن الثالث الهجري على يد أبي تمام والبحتري وأبي نواس، اللهم إلا إذا استثنينا بعض الشعراء مثل أبي الطيب وأبي فراس وغيرهما من شعراء هذا القرن.

«وأما الكتابة فقد كانت في هذا القرن ـ الرابع الهجري ـ أوسع موضوعاً، وأصفى أسلوباً وأبعد فكراً وأوضح منطقاً... فاتسع المجال في النثر لذوي الأفكار الثاقبة... فزينوه وجملوه بالتقسيم والسجع فنبغ في هذا القرن أئمة الكتاب في المشرق والمغرب».

وممن نبغ في هذا القرن شعراء وأدباء كثيرون، ونخص

من شعرائه بالذكر الشريف الرضي ومهيار الديلمي وأبا فراس الحمداني وابن نباتة السعدي وأبا العلاء المعري وأبا الحسن التهامي والسري الرفاء، كما نخص من أدبائه وكتابه: ابن العميد وابن عباد والصابي والهمذاني والخوارزمي وأبا حيان والآمدي وأبا علي القالي صاحب الأمالي وأبا الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني والجرجاني صاحب الوساطة، والثعالبي النيسابوري صاحب يتيمة الدهر والصولي صاحب كتاب الأوراق.

وأما في اللغة فقد نبغ الزجاج والأخفش ومحمد بن عرفة ونفطويه، وابن مجاهد، وابن دريد، وابن السراج وابن الأنباري والأزهري وابن جني والسيراني وابن خالويه وغيرهم. . .

ولأدب هذا العصر خصائص مميزة حيث أنها لم تقتصر على الجوانب الفنية القائمة على الصناعة والتأنق في اللفظ والصورة بل تعدته إلى التأليف الذي يميل إلى النهج العلمي أيضاً.

ولقد رق أسلوب الشعر ولان وأصبح على متناول جميع أفهام الناس مع ما يحمله من الطرافة والظرافة، فلنستمع إلى

قول أبي بكر الخوارزمي يُعَرِّض ببني العباس الذين يمنحون الناس ألقاباً لا أموالاً:

ما لي رأيتُ بني العباس قد فَتَحُوا
من الكُنى ومن الألقابِ أَبوَابا
مَلَّ الدراهمُ في كَفَّيْ خليفتِنا
هذا فأنفَقَ في الأقوام ألقابا

على أن الجانب الأكبر من شعر القرن الرابع الهجري ظل في البلاطات محافظاً على أسلوب الجاهليين لما يحمله من خشونة البداوة في أغراضها المألوفة كما يظهر من خلال شعر المتنبي والشريف الرضي والمعري.

هذا من الناحية اللفظية، وأما من الناحية المعنوية فإن للبيئة تأثيراً كبيراً على الأدب، ففي بلاط البويهيين تبرز في الشعر نزعة التشيع، وفي بلاط سيف الدولة تبرز نزعة القوة في مقارعة أعداء الأمة، وفي بلاط كافور تبرز نزعة التزلف والمراوغة... فقد كانت هَذه البلاطات صروحاً فسيحة لازدهار الشعر والأدب.

وبروز نزعة تمدح الفرس كان لا بدَ من معارضتها ونبذها كقول المتنبي وهو يندد بكل ما هو غير عربي في قوله:

إنما الناسُ بالملوكِ وهلْ تصلُحُ عربٌ ملوكُها عجم

كما نرى بديع الزمان الهَمذاني ينكر على العربي احتفاءه بالأعياد الفارسية بقوله: «إن عيد الوقود لعيد إفك وإن شعار النار لشعار شَرْكٍ وما أنزل الله بالسَّذَقِ[1] سلطاناً ولا شرّف نيروز النار».

وإذا كنا نرى في أدب القرن الرابع الهجري نوعي التشيع المعتدل والمتطرف فإننا نرى فيه اتساع نطاق الوصف في الطبيعة فبرز فن الزهريات، واشتهر ما يشار إليه هنا «روضيات الصنوبري» وقصيدة المتنبي في شعب بوان خير شاهد على ما نقول. وكذلك اتسع القول في الشعر الوجداني في السياسة والأخلاق وأحاديث النفس، فقصائد المتنبي مثلاً، فإن كانت مدحاً أو هجاء أو رثاء، فإنما نستطيع أن نستقرىء منها أخلاق سيف الدولة وكافور وأبي شجاع فاتك، «وديوان اللزوميات لأبي العلاء مقصور، على هذا الجانب من الحياة الاجتماعية، على النقد الاجتماعي بأوسع معانيه وأدق دلالته».

كما اتسع فن الاخوانيات في الشعر والأدب وهو عبارة عن الرسائل التي يتبادلها الأدباء شعراً ونثراً، ومن الاخوانيات في الشعر القصائد التي كان يبعث بها من أسره أبو فراس

(١) السذق: ليلة الوقود، كان الفرس يشعلون فيها النارالعظيمة والشموع.

الحمداني إلى ابن عمه سيف الدولة يحثه فيها على أن يخلصه من الأسر كما يحثه فيها على محاربة الأعداء. وهذه الإخوانيات قطع وجدانية خالصة لأنها تحمل، بين المتراسلين، صوراً من العتاب والتشوق واللوم والشكر... وقد تتناول أحياناً بحثاً أو نقداً أو نصحاً.

واتسع كذلك فن القصص في أغراض مختلفة وأساليب متنوعة «ويقصد به المثقفون تحيّلاً على النقد أو النصح أو إبرازاً لخصائص أدبية ومقدرة شخصية، أو كشفاً عن جانب من جوانب الفكر في معالجة القضايا العامة، كما كانت منه الحكاية العادية لتسلية جمهور الناس». ومن القصص والحكاية تحدد فن المقامة الذي أتى به بديع الزمان الهمذاني (٣٥٨ ـ ٣٩٨هـ) حيث أننا نجد في مقامته تسلية ومتعة لما تحمله مقاماته من الخصائص أهمها: المجلس والراوية والمكدي والملحة، أو النكتة أو العقدة، والموضوع واسم المقامة وشخصيتها والصناعة فيها والشعر الذي يتخللها. «فالمقامة فن الفكاهة وهي رواية الحكاية في حال من المرح مع الإشارة إلى ما يستطيبه الناس عادة من اللهو والجنس والهزء والإضحاك والإطراف».

حقاً إن العصر العباسي والقرن الرابع منه خاصة من أزهى العصور الإسلامية علماً وأدباً وحضارة إذ نضجت فيه مواهب

العربي التي تفتحت على أثر احتكاكه بالثقافة الهندية والفارسية واليونانية، مع رجوع معمق إلى مصادر الذات حيث حركت فيه عوامل العداء المستحكم الذي لاقاه من غير العرب الذين جعلوا من العروبة والإسلام فيها حطاماً.

٣ ـ الحياة الاجتماعية:

إن السلطة الفعلية في القرن الرابع الهجري كانت فعلياً بأيدي آل بويه الفرس الذين امتد حكمهم من فارس إلى بغداد نفسها الأمر الذي جعلهم قادرين على التصرف بزمام الأمور والتحكم برقاب العباد، كما أناطوا بأنفسهم أمر جباية الأموال التي اعتمدوا، في الحصول عليها، أبسط السبل وأرخصها إذ كانوا يقطعون الأرض والمناصب لمن يدفع لهم أكثر في كل عام. «وإذا كان الوزير يأتي إلى منصبه من هذه الطريق في أكثر الأحيان، فإنه كان يسلك في تولية أعمال الدولة مثل هذا المسلك، وقد يُعَيِّنُ الوزير عاملاً (جابياً للأموال) ويستوفي منه مبلغاً مقدَّماً، ثم بعد أمد طويل أو قصير يُعين عـاملاً آخر مكان العامل الأول ويستوفي منه مبلغاً جديداً»، الأمر الذي جعل الفساد يستضري «حتى شمل الحسبة والقضاء» وهما أهم ما يرتبط في حياة النـاس الاجتماعية ويعود بالنفع إليها، فما حال الناس إذا عمت الفوضى والسرقة والغش والرشوة والتلاعب بمقدرات حياة المواطنين ومكاسبهم التي ينبغي على النظام الإداري أن يهتم

بها ويحافظ عليها حتى يعم الرخاء وتكتمل شروط سعادة الإنسان.

والذي ساهم مساهمة فعالة في توسيع صدع الدولة العباسية كثرة الأجناس المتصارعة، في العراق، على مواقع النفوذ. فلو تأملت هذا المزيج السكاني من العرب والفرس والأتراك والزنج والآراميين والروم، لوجدت أنه من الواجب أن يجتمع هؤلاء الناس على القاسم المشترك الذي ينبغي أن يجمع بينهم ويعملون دونه للمحافظة على روح الاستمرار والبقاء وهم في ذلك إنما يحترمون الغاية الإلهية التي دعا إليها الإسلام في عميق تعاليمه فيجتمعون حولها فتنتصر بذلك إرادة العيش المشترك وتشمل السعادة الإنسان ولكنهم، أبداً، لم يدركوا ذلك إذ كانت تحركهم الشهوات وتدفعهم الأهواء إلى ارتكاب أحط الحماقات وأحقرها، وخصوصاً أن بني بويه هؤلاء كانوا يحرضون الناس على التمرد على سلطة الخلافة في الوقت الذي كانوا يعملون فيه تحت سلطتها فتعمقت الخلافات بين السنة والشيعة وانتشرت الفتن التي عبثت بلحمة المجتمع وتماسكه.

إضافة إلى هذا النزاع المذهبي فإن هناك نزاعاً خفياً بين المسلمين والنصارى واليهود والبوذيين، وكانوا جميعاً يناصبون السلطة السياسية العداء عن طريق الاتجاهات

الخاصة التي يؤمنون بها.

وعلى خط متعاكس مع ما رأينا من الصراعات فإننا نجد أن هذا القرن «قد شهد حضارة مزدهرة وترفاً بالغاً في المطعم والملبس والمسكن، فقد غلب طراز الحياة الفارسي على هذا العصر غَلَبَةً ظاهرة عامة شاملة وأصبحت الأعياد الفارسية كالنيروز[1] والمِهْرَجان[2] أعياداً للعامة والخاصة من الفرس وغير الفرس».

وانتشر اللهو في الأوساط المترفة وتعددت وجوهه، وقد ضخّم الأدباء والشعراء مظاهر هذا اللهو مع ما يحمله من الاستهتار والمجانة والعبث، وهم يشيرون في ذلك إلى أن عوامل اللهو موجودة في كل زمان ومكان و«لكنها تستسِرّ في عصور القوة السياسية ثم تظهر وتشتهر في عصور الضعف السياسي، وهذا ما جعل اللهو ظاهراً شاملاً منتشراً في القرن الرابع الهجري حينما فقد العرب سلطانهم السياسي وتقسّم الحكم الإسلامي بين دويلات متنازعة» فكان اللهو خير متنفس للناس.

أما إذا جئنا نتحدث عن الثروة بين الناس فنجد الغنى الفاحش من جهة والفقر المدقع من جهة ثانية، فالثروات

(١) النيروز: ٢١ آذار وهو عيد رأس السنة الفارسية.
(٢) أول الخريف.

كانت موزعة توزيعاً غير عادل بسبب الظلم والطمع والأنانية، فقد «كان هنالك أفراد من رجال الدولة ومن ذوي الجاه والسلطان في المجتمع يملكون الملايين ويسرفون في المآدب والملاهي بينما كان ثمت ملايين من الناس لا يجدون أحياناً ما ينفقون ولا ما يشبعون به».

أبو الطيب المتنبي

اسمه ـ مولده ـ كنيته ـ لقبه ـ نسبه ـ حياته

هـو أحمـد بن الحسين بن الحسن بن عبـد الصمـد الجُعْفِي، الكندي، الكوفي من بني جعفر بن سعد العشيرة ابن مَذْحِج من كهلان من قحطان من عرب الجنوب اليمنيين.

وكانت ولادته في حي بني كندة في الكوفة سنة (٣٠٣هـ ـ ٩١٥م). ولقد وصف الكوفة محمد العطاردي وهو بمجلس عبد الملك بن مروان بقوله: «والكوفة سفلت عن الشـام ووبائها، وارتفعت عن البصرة وحرها، فهي مريئة مريعة، إذا أتتنـا الشمال ذهبت مسيـرة شهر على مثـل رضـراض[1] الكافور، وإذا هبت الجنوب جاءتنا ريح السـواد وورده وياسمينه وأترنجه، ماؤنا عذب وعيشنا خصب». . . فمن هذه المدينة الجميلة الممرعة آنذاك انطلق أحمد بن الحسين وأطل على الدنيا بعد أن قضى في ربوعها سني حياته الأولى وهو يتردد فيها على محالّ الوراقين ـ وهم أشبه بمكتبات اليوم ـ يجمع العلم من أوراقهم بعد أن تعلم القراءة والكتابة

(١) الرضراض: ما دق من الحصى.

في كُتّاب للعلويين، وخصوصاً أن الكوفة كانت تزاحم البصرة علماً وثقافة وأدباً في تلك الآونة من الزمن.

أما كنيته فأبو الطيب وأما لقبه، بالمتنبي، فقد قيل فيه أمور كثيرة، فقد قال القاضي أبو الحسن الهاشمي عندما ذكر المتنبي: «كنت أعرف أباه بالكوفة، شيخاً يسمى عبدان يستقي[1] على بعير له، وكان جعفياً صحيح النسب. وقد كان المتنبي لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ادعى أنه علوي حسني، ثم ادعى بعد ذلك النبوة، ثم عاد يدعي أنه علوي إلى أن أشهد عليه، بالشام، بالكذب بالدعوتين، وحُبِس دهراً طويلاً، وأشرف على القتل.. ثم استتيب وأشهد عليه بالتوبة وأُطلِق». ثم قال أبو علي بن أبي حامد: «سمعت خلقاً بحلب يحكون ـ وأبو الطيب بها إذ ذاك ـ أنه تنبأ في بادية السماوة ونواحيها إلى أن خرج إليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الإخشيدية فقاتله وأنفره وشرد من كان اجتمع إليه من كلاب وكلب وغيرهما من قبائل العرب وحبسه في السجن حبساً طويلاً فاعتلّ وكاد أن يتلف حتى سئل في أمره فاستتابه وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الإسلام... وأطلقه». وقال أبو عبد الله مُعاذ بن اسماعيل اللاذقي: «قدم أبو الطيب اللاذقية في سنة نيف وعشرين

(١) يستقي: يبيع الناس الماء فسمي بالسقاء.

وثلاثمائة وهو لما عذَّر[1] وله وفرة إلى شحمتي أذنيه فأكرمتُه وعظمته لما رأيته من فصاحته وحسن سَمْتِه. فلما تمكن الأنس بيني وبينه وخلوت معه في المنزل اغتناماً لمشاهدته واقتباساً من أدبه قلت: والله إنك لشاب خطير تصلح لمنادمة ملك كبير! فقال ويحك أتدري ما تقول؟ أنا نبي مرسل! فظننت أنه يهزل... فقلت له ما تقول؟ فقال: أنا نبي مرسل... قلت تفعل ماذا؟ قال: أملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً...» وقال التنوخي عن أبيه «فأما أنا فإني سألته بالأهواز في سنة أربع وخمسين وثلاثمائة عند اجتيازه بها إلى فارس في حديث طويل جرى بيننا عن معنى «المتنبي» لأنني أردت أن أسمع منه هل تنبأ أم لا؟ فأجابني بجواب مغالط لي، وهو أن قال: هذا شيء كان في الحداثة أوجبته الضرورة فاستحييت أن أستقصي عليه وأمسكت».

وعندما حاول ابن خالويه، في حضرة سيف الدولة أن يتهمه بالكذب وينعته بالجهل لادعائه النبوة أجابه المتنبي: «أنا لست أرضى أن أُدْعَى بهذا، وإنما يدعوني به من يريد الغض مني، ولست أقدر على الامتناع».

إن نزق الحداثة وطيشها قد يدفع بالفتى الطَّموح إلى أن يندفع إلى أبعد من هذا بكثير، ونحن بدورنا لا نريد أن

(١) عذَّر: نبت الشعر على جوانب لحيته.

نناقش مثل هذه الأمور طالما أن المتنبي نفسه قد اعتذر عنها وردها إلى الحداثة من ناحية، ولا يرى أنه قادر على ردّ ما ينعته به الناس من ناحية ثانية، ومن ناحية ثالثة لا يمكن أن تلحق صفةٌ ما بإنسان إذا لم يكن هناك باعث على إذاعة تلك الصفة ونشرها.

وأما نسبه، فقد مر بنا قول أبي الحسن الهاشمي «كنت أعرف أباه بالكوفة، شيخاً يسمى عيدان[1] السقاء يستقي على بعير له، وكان جعفياً صحيح النسب». والمتنبي، وكما عرفت من اسمه، يعود بنسبه إلى عرب اليمن لأن جُعْفَى، جده الأعلى، ينتمي إلى قحطان جد اليمنيين. هذا من جهة نسب أبيه الذي يفاخر به بقوله:

أنا مَنْ بعضُهُ يفوق أبا البا
حثِ والنجل بعضُ من نَجَلَه

وهو يريد بهذا البيت أن أباه أعلى منزلة ونسباً من أبي الباحث الذي أعياه البحث عن نسب المتنبي لأن الولد بعضٌ من الوالد.

وأما جدَّتُه فكانت همْدانية وهي من نساء الكوفة الصالحات اللواتي لا مجال للطعن في نسبهن وشرفهن.

---

(١) عيدان وليس عبدان السقاء كما جاء في تاج العروس.

ولقد كان المتنبي كَلِفاً بأمر هذه المرأة الطاهرة التي كانت قد شملت حفيدها بكل عناية وحنو. وعندما توفيت هذه المرأة الصالحة رثاها المتنبي بقصيدة عصماء حدد لنا فيها مقدار العلاقة الطيبة التي تربطه بها علّهُ يستطيع في ذلك أن يرد لها بعض الجميل الذي أسدته إليه في طفولته «كونها له أماً» ولكن القدر كان أقوى من تطلع المتنبي إلى القيام بعملية الوفاء لها، كما أن أعداءه أنذروه في حال دخوله الكوفة فآثر الذهاب إلى بغداد وقلبه يتفطر لوعة وأسى لأنه لم يُلقِ نظرة الوداع الأخير إلى تلك الأم الجليلة الوادعة.

وإذا كان المتنبي صحيح النسب، أباً وأماً، فهو بهذا عربي قح لا غبار على نسبه وخصوصاً أن أجداده من الطرفين مشهود لهم بالكرم والشجاعة والمروءة والطموح ولا غرو إذا قال فيهم مفتخراً بنفسه:

وإنــي لـمِــنْ قــوم كــأن نُـفُــوسَــهُـم
بهــا أنفٌ أن تسكُـنَ اللحـمَ والعــظمــا

أما المتنبي نفسه، فلم نر من خلال شعره أنه تحدث عن نسبه ولا رضي أن يتحدث عنه صراحة وجهراً، وعندما سأله والد التنوخي عن ذلك قال: «أنا رجل أخبط القبائل وأطوي البوادي وحدي ومتى انتسب لم آمن أن يأخذني بعض الأعراب بطائلة بينه وبين القبيلة التي انتسب إليها. وما دمت

غير منتسب إلى أحد فأنا أسلم على جميعهم ويخافون لساني». وإذا تأملنا القصيدة التي مدح بها أبا العشائر الحمداني:

أنا ابن من بعضه يفوق أبا البا
حث والنجل بعض من نجله

إن الكِذاب الذي أُكادُ بِهِ
أَهْوَنُ عندي من الذي نقله

فلا مبالٍ ولا مداجٍ ولا
وَانٍ ولا عاجزٌ ولا تُكَلَه

فمن خلال هذه الأبيات نرى أن قوماً قد افتروا عليه وكادوا إليه من جهة نسبه فرد إليهم كذبهم وادعاءهم بأن آباءه أعلى منزلة مما يتصورون فهو لذلك غير مبال بهم وقادر على الصمود في وجه التحديات بنفسه دون اللجوء إلى الاستعانة بأحد مهما سما وعلت منزلته. وهو نفسه أولى بالفخر والاعتداد، وهو في ذلك مواطن الفخر لدى آبائه وأجداده، وبه مجدهم وشرفهم كما نرى من خلال قوله:

ما بقومي شَرُفْتُ بل شرفوا بي
وبنفسي فَخَرْتُ لا بجدودي

وبهم فخر من نطق الضاد
وعوذُ الجاني وغوثُ الطريد

أو قوله:

ولستُ بقانعٍ من كلِّ فضلٍ
بأنْ أُعْزَى إلى جدٍّ هُمَامِ

وفي رثاء جدته يقول:

ولو لم تكوني بنت أكرم والد
لكان أباك الضخمَ كونك لي أمّا

فهو هنا يرى أن قيمة جدته لم تسمُ إلا لأنه يعتبرها أما له.

وإذا كان المتنبي لم يصرح بنسبه علانية فهل نستطيع أن نلمس صدق انتمائه إلى القبائل اليمنية من خلال مدحه لشجاع بن محمد الأزدي وعلي بن أحمد الطائي وشجاع بن محمد الطائي، وعبيد الله بن يحيى البحتري وأخيه أبي عبادة، أو من مدحه للتنوخيين في اللاذقية ومنهم علي بن ابراهيم التنوخي؟ الذي قال فيه؟:

أُنسي السكونَ وحَضْرَمَوْتاً ووالدتي وكِنْدَة والسَّبِيعا

أو من شعره في تفضيل اليمن على خِنْدَف في قوله:

قضاعة تعلم أنني الفتى
الذي ادُّخِرْتُ لصروف الزمانِ
ومجدي يدلُّ بني خِنْدَفٍ
على أن كلَّ كريمٍ يماني

أو في مدح عبيد الله بن يحيى البحتري يقول:

كفى بــأنــك من قحــطانَ فــي شــرفٍ
وإن فــخــرْتَ فـكــلٌّ مــن مــواليــكــا

أو في مدح أخيه أبي عبادة البحتري يقول:

قد كنتُ أحسبُ أن المجدَ من مضــر
حتــى تَبَحْتَــرَ فـهــو الـيــوم مــن أددِ

وهل يمكن أن نعتبره مضرياً من خلال مدحه لأبي الحسين علي بن أحمد المُرّي في جبل جرش؟ في قصيدته التي مطلعها:

لا افــتــخــارٌ إلا لــمــن لا يــضــام
مــدركٍ أو مــحــاربٍ لا يــنــامُ

إلى أن يقول:

إنــمــا مــرةُ بــنُ عــوفِ بــنِ ســعــدٍ
جــمــراتٌ لا تــشــتــهــيــهــا الــنــعــام

ولا يضير المتنبي سواء انتسب إلى قحطان أو إلى عدنان وهو العربي البدوي القح العالي الهمة والنفس المتسامية الطموحة إذ يقول:

هــمــتــي هــمــةُ الــمــلوك ونــفــســي
نــفــسُ حــرٍّ تــرى الــمــذلــةَ كــفــراً

أما حياته فيمكن تقسيمها إلى أربع مراحل: المرحلة الأولى تمتد من سنة ٣٠٣هـ إلى سنة ٣٣٧هـ في العراق والشام، والمرحلة الثانية من سنة ٣٣٧هـ إلى سنة ٣٤٦هـ في حلب والمرحلة الثالثة في مصر من ٣٤٦ إلى سنة ٣٥٠هـ، والمرحلة الرابعة في العراق وفارس من سنة ٣٥٠هـ حتى وفاته سنة ٣٥٤هـ.

المرحلة الأولى من حياة المتنبي:
(٣٠٣ - ٣٣٦هـ)

جاء في يتيمة الدهر للثعالبي أن المتنبي ولد «بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمائة، وأن أباه سافر إلى بلاد الشام، فلم يزل ينقله من باديها إلى حضرها، ومن مدرها[١] إلى وبرها[٢] ويسلمه[٣] في المكاتب ويردده في القبائل، ومخايله[٤] نواطق[٥] الحُسنى عنه، وضوامن[٦] النجح فيه، حتى ترعرع أبو الطيب وشعر وبرع».

ومن هنا قيل: «وكل إناء بالذي فيه ينضح» إذ أن علائم النجابة والعبقرية والذكاء قد بانت على أحمد بن الحسين منذ نعومة أظفاره ونما على حب العلم في بلدة كالكوفة وقد كانت منارة علمية يؤمها الناس من كل حدب وصوب فكيف

(١) المدر: الحضر سكان المدن المبنية من الصخر والطين.
(٢) الوبر: أي أهل الوبر وهم الذين يسكنون خيام الشعر.
(٣) يسلمه: ينزله ويدخله.
(٤) مخايله: علائمه وسماته.
(٥) نواطق: مخبرة
(٦) ضوامن: من ضمن: كفل وتعهد.

لا يستفيد منها ويعب من علمها الجم واحد نبيه كالمتنبي الذي قصد كُتَّابها[1] ونهل منه كل ما توصلت إليه حضارة القرن الرابع الهجري من تنوع وغنى في شتى أنواع العلوم والفنون الأدبية واللغوية التي تهيأ لها جهابذة كبارهم في الحقيقة قمة الهرم الحضاري الضخم الذي تمخضت عنه عبقرية المتنبي الذي استطاع أن ينفذ إلى أصول تلك الثقافة العلمية والأدبية واللغوية، بفضل ما أوتيه من القدرات الخلّاقة المبدعة من ناحية، ومن ناحية ثانية بفضل اعتماده على أولئك الجهابذة الأعلام ونخص منهم: أبا عمر الزاهد وأبا نصير ونفطويه ودرستويه وأبا بكر محمد بن دريد الذي يعتبر خاتم أدباء ذلك العصر، وأبا القاسم عمر بن سيف البغدادي وأبا عمران موسى.

إن معرفة المتنبي بأولئك العلماء الأجلاء وغيرهم قد جعلت منه أديباً كبيراً ولم يكن في وقته من يدانيه في علمه وشعره وأدبه.

لقد أكد الرواة أن تأصيل ثقافة المتنبي وعلمه كانت في الكوفة وحدها وخصوصاً في كُتّاب العلويين الذي لاقى فيه المتنبي كل عناية واهتمام حيث لُقِّنَ فيه ثقافة خلقية عالية حركت في نفسه مكامن الطموح فاندفع يطلب المجد

(١) الكتاب: المدرسة البدائية.

والرئاسة في الوقت الذي لم يعد فيه أي قيمة للإنسان المثال إذ أن الأمر قد أفلت من أيـدي أصحابـه القادرين على المحافظة على أمور الناس ورعاية حقوقهم، الأمر الذي جعل البــلاد تعيش في جـو من الفــوضى في ظـل غيــاب القـائــد الحازم حيث عمت الاضطرابات وانتشرت الفتن ولم يعد يعتمل في نفوس الناس عموماً غير القلق والخوف حيث لم يبق من الخلافة العباسية الإسـلامية إلا اسمهـا، وغُزِيَت الكوفة أكثر من مرة من قِبل القرامطة كما غزيت معظم المدن مما اضطر الناس إلى النزوح عن مدنهم وقراهم وقد يُظن في هذا المجال أن المتنبي قد نزح إلى بغداد ولم يكن معه غير خمسة دراهم، وبينما كان يتجول الفتى الناشىء في أسواق تلك المدينة العامرة رأى رجلاً يبيع خمس بطيخات فطلبها منه المتنبي فأبى الرجل أن يبيعها له إلا بعشرة دراهم، وإذا بشيخ يمر فناداه البائع قائلاً: أتسمح أن أحمل هذا البطيخ إلى بيتك؟ فقال الشيخ: كم ثمنه؟ قال: خمسة دراهم فقال الشيخ لا بدرهمين فقط، فحملها له. والمتنبي يتعجب من ذلك قائلاً للبائع: اعطيتك خمسة دراهم وبعته بدرهمين محمولاً؟ فأجابه البائع: اسكت هذا يملك مئة ألف دينار.

لقد كان لهذه الحادثة أثر عظيم على نفس المتنبي حيث أنمت عنده سعيه الحثيث نحو المال وحب الرياسة وكره

الناس، وفي ذلك يقول:

فـلا مجْـدَ في الـدنيـا لمن قـل مـالُـه
ولا مـال في الـدنيـا لمن قَـلّ مجـدُهُ

إذا كان أحمد بن الحسين قد نهل ما نهل في الكوفة، من العلم والثقافة، من كتّابها وعلمائها، فإنه قد نمت عنده رغبة حب الدرس والتحصيل فاعتمد، في سبيل ذلك، على نفسه التواقة إلى العلى، فكان يجلس آخر النهار، وبعد أن يفرغ من تناول الطعام، إلى كتبه ودفاتره يـدرس وينقب حتى يمضي من الليل أكثره، وكانت تلك عادته في كل ليلة ـ على حد ما جاء في الصبح المنبي.

وهو إلى ذلك كان كثير الاطلاع، ويعمل بشكل دائب على تلقُّف العلوم واستلهامها أنى وجدها. ومن جملة ما كان يطالعه ويهتم به ديواني الطائيين ـ أبي تمام والبحتـري ـ ويستصحبهما معه في أسفاره. وإذا سئل مرة هذا البيت مثلاً أخذت معناه من قول الطائي فيقول: «الشعر جادة وربما وقع حافر على حافر». وإذا كان المتنبي يجحد ديواني الطائيين فهذا يعود إلى قصور منه لأن المطالعة من حقه وبدونها لا يمكن للأديب أو الشاعر أن يبني صرحه الثقافي ويصقل قدرته الفنية ويشحذ موهبته الأدبية. وذلك لأن الشاعر الحق

قبل أن يكون شاعراً، عليه وبشكل جازم أن يلم بإنتاج من سبقوه ويعمل على تجاوزهم في عطائه حتى يكون من المبدعين.

ولعل أوائل شعر المتنبي تدل دلالة قاطعة على أن مواهبه قد تفتحت وهو ما زال صبياً في كتاب الكوفة، وفي ذلك قوله:

لا تحسن الوفرة حتى ترى
منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدةً
يعلها من كل وافي السبال

وليس غريباً على المتنبي أن يقول مثل ذلك، ونحن قد ألمحنا بإيجاز إلى منابع تربيته الشخصية، وظروف عصره السياسية والفتن الدامية التي كانت تعبث فيه؛ فمن أجل ذلك كله نرى أن شاعرنا كان صدى لذلك العصر وهو يرسم، على حداثة سنه، مثل تلك الصورة الدامية التي تجعله يطمح إلى الجهاد والثورة ضد سياسة عصره الرعناء التي خلقت فيه نفسية متوثبة ثائرة.

ولعل الفتى الناشىء ببعد بصيرته أحس أنه من الواجب أن ينطلق إلى البادية ليفيد منها ما يشاء ـ وعلى عادة من سبقوه ـ وينتفع من مشافهة الأعراب لخلو ألسنتهم من العجمة التي

عمت قرى العراق، فمكث بها طويلاً، وعاد بعد سنين بدوياً قحاً بعد أن أحاط بشكل دقيق «باللغة والعلم الواسع بأيام العرب ومواقفها وأنسابها» وغير ذلك مما له أثر بالغ في إنماء مواهب الفتى الفنية والإبداعية.

أما انصراف المتنبي في تلك الآونة عن مدح رجال الحكم وعلى رأسهم الخليفة الذي كان ألعوبة في أيدي بني بويه، فيمكن أن يعود إلى أمور عديدة أهمها:

أ ـ إن نزعة المتنبي العلوية كانت تأبى عليه أن يمدح الخليفة العباسي أو يتصل به على الأقل لأنه لا يمثل الوجه الشرعي للحاكم المسلم.

ب ـ إن شاعريته وتساميه تأبيان عليه أن يمتدح أناساً قد ابتعدوا «عن جد الأمور» وانصرفوا إلى اللهو والعبث حيث كانت الغيرة والشقاق تدبان في نفوس الناس فيحتكمون غالباً إلى السيف أو إلى المراوغة فتزهق الأرواح أو تهدر الكرامات بإهراق ماء الوجوه.

ج ـ إن بني بويه، وهم ذلك الجسم الغريب، عن أرض العرب، كانوا سبب هذا التشرذم والضياع وأداته.

«وإذا كان المتنبي لم يجد في حكام العراق من يستأهل المدح والثناء فإنه وجد فيهم الشخصية المتخاذلة التي نفرته

من الملوك حتى وجد الخير كل الخير في البعد عنهم وعدم لقـائهم» وإعلان الحـرب عليهم بشعره نـرى المتنبي معه كثيـر الاحتراس بذكر أي واحد منهم بهجاء صريح منعاً «للعقوبة والانتقام».

أما حال المتنبي المادية، فإن الرواة لم يتكلموا عنها تصريحاً أو تلميحاً وإنما نستطيع أن نستقرئها من خلال شعره حيث يقول:

أيْـنَ فـضـلي إذا قَـنِعْـتُ مـن الـدهْـرِ
بـعـيشٍ مُـعَـجَّـلِ الـتَّـنْـكِـيـدِ
ضـاقَ صـدري وطـالَ في طلبِ الـرِّزْ
قِ قـيـامـي وقـلَّ عـنـه قُـعُـودي

أو قوله وهو يخاطب نفسه التي تدفعه إلى المجد والشهرة ولكن بشكل رخيص وبدون تعب وتضحية:

تـريـديـن إدْراكَ المَـعـالـي رَخِـيـصَـةً
فـلا بـدّ دون الشهـد من إبـر النحـل

أو قوله كذلك:

أذاقـني زمـني بـلوى شـرقـتُ بـهـا
لَـوْ ذَاقَهـا لَبَكَى مـا عـاشَ وانْـتَحَـبـا

ألا ترى في قوله هذا مقدار المرارة التي يعانيها المتنبي من ظلم الزمان وجوره؟ ذلك أن الزمان لو تجرد إنساناً يحس ويشعر وذاق تلك البلوى لقضى العمر منتحباً باكياً.

لقد ضاق المتنبي ذرعاً في العراق، فيمم وجهه شطر الشام عله يجد فيها ما يؤنس ويخصب. وما كاد يصل إلى اللاذقية، سنة ٣٢٠هـ حتى نسبت إليه قصة النبوة ودخل من أجلها السجن بأمر من عامل الإخشيد الذي ما لبث أن استتابه وأطلق سراحه بعد أن ذاق، المتنبي، الأهوال ورأى الموت رأي العين لما ساموه إياه من ألوان العذاب المختلفة. وبعد خروجه من السجن هام على وجهه وأوشك أن يفقد الأمل لولا أن حط عصا الترحال في حضرة بدر بن عمار الذي أحيا في نفس أبي الطيب ميت الأمل سنة ٣٢٨هـ.

لقد وجد المتنبي في بدر رجلاً عربياً شهماً وشجاعاً وكريماً، طيب النفس، كارهاً للعجم، فذ الرجولة، فبقي في جواره، بطبرية، التي كان والياً عليها من قبل ابن رائق إلى أوائل سنة ٣٣٣هـ.

وأما بدر فقد وجد في المتنبي ما وجده المتنبي فيه، من ملامح العظمة والطموح فأكرمه وأجزل له وشجعه على أن يقول فيه ما لم يستطع الدهر محوه، ولكن الصفاء لم يطل

لأن الوشاة والمفسدين قد أوقعوا بين الشاعر وأميره وأوغروا صدر بدر على المتنبي الأمر الذي اضطره إلى الرحيل إلى دمشق قاصداً عملاً من أعمالها يقال له حمى جرش، تحت أمرة أبي الحسنين علي بن أحمد المري الخراساني، إذ كانت بينهما مودة وهما بطبرية، وذلك سنة ٣٣٣هـ واحتمى به حيث مدحه المتنبي بقصيدتين. لقد حدد في الأولى معالم نفسه بحكمتها وعلوها وقدرتها وانتفاضتها وثورتها وفي القصيدة الثانية حدد سيره في البوادي وواصفاً إياه، وقد عرّض بابن كَرُوس الذي أوقع بينه وبين صاحبه ابن عمار، واعتذر من صديقه المرّي مودعاً في آن معاً.

ثم ما لبث أن اتجه شطر انطاكية التي دخلها سنة ٣٣٤هـ وبها أبو عبد الله الخصيبي، فقصده المتنبي ومدحه واصفاً رحلته في البادية وخشيته من أن يُفْتَك به فيها.

وفي هذه الأثناء جاءه كتاب من جدته تعاتبه وهي تبدي نحوه أجمل أشواقها وتطلب منه التوجه إلى العراق ففعل، ولكنه لم يستطع دخول الكوفة فدخل بغداد، وكتب إلى جدته أن تذهب إليه. وعندما استلمت تلك المرأة كتاب حفيدها سقطت ميتة من الفرح فقال فيها، سنة ٣٣٥هـ قصيدته المشهورة التي مطلعها:

ألا لا أُرِي الأحداثَ مدحاً ولا ذماً
فما بَطْشُها جَهلاً ولا كَفُّها حِلْما

ثم لم يلبث بعد ذلك أن رجع من بغداد إلى انطاكية حيث مدح أبا الفضل أحمد الأنطاكي في القصيدة التي مطلعها:

لك يا منازل في القلوب منازل
أقفرت أنت وهن منك أواهل

وبعد ذلك لبى المتنبي دعوة أبي محمد الحسن بن طغج، والي الرملة، سنة ٣٣٦هـ، بعد أن ألح بدعوته إليه، فأكرمه وأجزل له العطاء. فقال فيه المتنبي شعراً كثيراً ثم ما لبث أن طلب منه أن يمدح طاهر بن الحسين، وهو شيخ من شيوخ العلويين بالرملة فمدحه إكراماً لابن طغج.

وفي سنة ٣٣٦ صمم أبو الطيب الاتصال بأبي العشائر الحمداني ويمم وجهه شطر انطاكية، فمر بأطرابلس، وبها ابن كيغلغ الذي راسل المتنبي أن يمدحه، فاحتج المتنبي بيمين أقسمه أن لا يمدح أحداً إلى مدة محددة، فعاقه وسد عليه منافذ الطرق. ولكن المتنبي تمكن من الذهاب إلى دمشق ولم يستطع ابن كيغلغ من اللحاق به، وهجاه أبو الطيب بقصيدته التي مطلعها:

لِـهَـوى الـقـلوبِ سَـريـرةٌ لا تُـعْـلَـمُ
عَـرَضـاً نـظرتُ وخِـلْتُ أني أسْـلَـمُ

إلى أن يقول:

وإذا أتـاكَ مـحـدِّثـاً فـكـأنـه
قِـرْدٌ يُـقَـهْـقِـهُ أو عـجـوزٌ تَـلْطِمُ

ومنها كذلك:

ذو الـعقـلِ يَـشْقَـى في الـنعيم بِـعَقْـلِهِ
وأخـو الـجهـالـةِ فـي الشـقـاوة ينـعَمُ
والـظلم من شيم النفـوس فـإن تجـدْ
ذا عِـفَّـةٍ فـلعـلَّةٍ لا يَـظْلِمُ

ولكن المتنبي لم ينثن عن تصميمه، فقد وصل إلى انطاكية واتصل بأميرها أبي العشائر الحمداني الذي كان والياً عليها من قبل سيف الدولة أمير حلب. وكانت علاقة المتنبي بأبي العشائر علاقة احترام وتقدير وإعجاب حيث مدحه المتنبي بأكثر من قصيدة، وفي مناسبات مختلفة. ودخول المتنبي أرض بني حمدان كان بعد أن تهيأت له شروط النضج إذ بلغ عمره الثالثة والثلاثين، وأصبح قادراً على التصرف بأمور اللغة لامتلاكه ناصيتها وقد صقلت إحساسه التجارب.

المرحلة الثانية (٣٣٧هـ - ٣٤٦هـ)
في رحاب سيف الدولة

ولحسن حظ المتنبي، قدم، في تلك الفترة، سيف الدولة إلى انطاكية، فقدَّم أبو العشائر المتنبي إليه بعد أن أثنى عليه كل عبارات الثناء، فكان ذلك بدء الاتصال بين سيف الدولة والمتنبي، فمدحه المتنبي في جمادى الأولى سنة ٣٣٧، ونقله معه إلى حلب بعد أن أمضى المتنبي في حضرة أبي العشائر ما يقرب من سنة كاملة.

لقد كان لتعرف المتنبي على سيف الدولة شأن مهم في تاريخ الأدب العربي. لقد عرفنا في بداية الحديث عن المتنبي أنه يتمتع بنفس وثّابة طموحة لا ترتضي العيش إلا في الأجواء النقية الصافية التي لا تليق إلا بأصحاب النفوس الكبيرة، والهمم العالية الذين لم يرقهم ما كان يسود القرن الرابع الهجري من الأمور السياسية والدينية والاجتماعية المتردية فنادوا: الثورة! الثورة!

والمتنبي، ومنذ نعومة أظفاره، قد حمل لواء هذه الثورة وهو يدعو الناس إلى أن ينفضوا عنهم غبار الذل والخنوع

والاستكانة، فأسمعه يقول وهو يخاطبهم من خلال نفسه:

عِشْ عـزيـزاً أو مُـتْ وأنـتَ كـريـمٌ
بـيـن طَـعْـنِ الـقـنـا وخَـفْـق الـبُـنُـود
فـرؤوس الـرِّمـاحِ أذْهـبُ لـلغَـيْـ
ـظِ وأشـفـى لـغـل صـدر الـحـقـود
فـاطـلب الـعـز فـي لـظى وذرِ الـذُّلَّ
ولـوْ كـانَ فـي جِـنـان الـخـلودِ

ولَمّا لم يجد فيهم أذناً صاغية أخذ يتعالى عليهم بعد أن أحس بأنه طائر يغرد في غير سربه إلى أن تهيأت له الظروف واتصل بسيف الدولة إذ وجد فيه ضالته وبيت القصيد عنده.

حقاً إن سيف الدولة كان فيما سبق من حياة المتنبي يمثل الحلقة المفقودة التي كان يبحث عنها فوجدها متمثلة في عليّ بن أبي الهيجاء بن حمدان بن الحارث بن لقمان بن راشد من بني تغلب.

لقد كان عليّ بن أبي الهيجاء بن حمدان «شاعراً مجيداً وناقداً ذا بصر بالشعر»، إضافة إلى كونه «فارساً مغواراً ذا أطماع سياسية بعيدة خاض من أجلها المعارك العديدة مع جند الأخشيد بالشام ومع جند الروم في الشمال ورجع من معظمها سالماً منتصراً».

ولقد وجد المتنبي في صفات سيف الدولة واكتمال معالم الرجولة فيه صدى لما تعتمل به نفسه فأحب علياً الشاعر والناقد والفارس والعربي القح الذي يناهض الأعداء من فرس وروم ويسجل عليهم الانتصار تلو الانتصار، والمتنبي، في آن معاً شاعر وناقد وفارس يدعو إلى الثورة ويفتش عمن يعضده بها ليرفع الضيم عن الناس في عصره الذي كانت تسوده الفوضى والإرهاب من التمزق الاجتماعي والفراغ السياسي والاضطراب الديني، الأمر الذي جعل الخوف والقلق يتسربان إلى نفوس الناس حيث سيطر عليهم اليأس وانعدم الرجاء وانقطع الأمل.

لقد انصرف المتنبي إلى سيف الدولة وأصبح شاعر بلاطه المفوه، كما امتاز عن غيره من شعراء هذا البلاط بأمور كثيرة منها: أنه لا يُلقي قصائده أمام سيف الدولة إلا وهو جالس ولا يقبِّل الأرض بين يديه لأنه يعتبره نده الأمر الذي جعل بعض الناس، آنذاك يتهمون المتنبي بالجنون.

أما شعر المتنبي في هذه المرحلة من حياته فإنه يحمل الكثير من ملامح التجاوز التي بدأت بالتفتح في اللاذقية عند التنوخيين أولاً، ثم ما بدر منه من تجليات في مدح بدر بن عمّار في طبرية ثانياً ثم ما صدر عنه من شعر في مدح

محمد بن طغج ثالثاً. وهذا التجلي في عمليات التجاوز، تلك، قد حط رحاله في شخص سيف الدولة، حيث بلغ المتنبي في شعره فيه، ما لم يبلغه أحد من الشعراء ممن أتى قبله ولا بعده، في تاريخ الأدب العربي كله، ولهذا قال ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة: «وليس في المُوَلّدين أشهر اسماً من الحسن بن هانىء، أبي نواس، ثم حبيب (أبي تمام) والبحتري، ويقال إنهما أخملا في زمانهما خمسماية شاعر كلهم مجيد، ثم يتبعهما في الاشتهار ابن الرومي وابن المعتز... فإن هؤلاء الثلاثة (أبا نواس وأبا تمام والبحتري) لا يكاد يجهلهم أحد من الناس، ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس».

«لقد جمع سيف الدولة في بلاطه ـ إضافة إلى كونه أديباً وشاعراً وذواقة للشعر ـ من الأدباء والشعراء والعلماء ما لم يجتمع مثله إلا في بلاط هارون الرشيد».

ولقد عظم مقام المتنبي في بلاط سيف الدولة وشعر شاعرنا فيه بشيء من الرضا النفسي والاطمئنان الروحي إذ كان يذهب في الغزوات مع سيف الدولة مقدَّماً على الجنود والقواد كما بات قرير العين إذ أقطعه الأمير قرية قرب حلب اسمها سبعين، كان ذلك لأن الأمير سيف الدولة قد أدرك ملامح الطموح في نفس المتنبي إلى السلطان والحكم.

هذه الخطوة التي لقيها المتنبي قد أجّجت النار حسداً وغيظاً في قلوب الكثيرين، في بلاط سيف الدولة، مما جعلهم يعملون على أن يوقعوا بين الأمير وشاعره إلى أن تمكنوا من إيغار قلب سيف الدولة على المتنبي إذ كانوا يتنازعون على الألفاظ والإعراب والأشعار بينما يغزو الروم ميافارقين سنة ٣٤٥هـ ويهدمونها ويقتلون من أهلها عدداً كبيراً بعد أن سَبُوا من سبوا ونهبوا ما نهبوا.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أن معز الدولة حاول أن يضغط على سيف الدولة بسبب تقاعس أخيه ناصر الدولة وإخلافه مع سالب الخلافة حقها، ابن بويه، الأمر الذي اضطر سيف الدولة إلى أن يفاوض على مقادير بالغة من المال سنوياً فرضي ابن بويه وانصرف عن حرب بني حمدان لأن المال عنده أهم من الحرب وخصوصاً أن الناس قد امتنعوا عن دفع الخراج لقصر ذات يدهم.

وقد قيل: إن المتنبي شارك سيف الدولة في غزوة إلى بلاد الروم ولم ينج من العرب في تلك الغزوة غير سيف الدولة وستة فرسان من صحبه أحدهم المتنبي.

وإذا نظرنا إلى شعر المتنبي في هذه المرحلة فلم نر أنه مجرد ألفاظ مرصوفة وإنما هو في الحقيقة صور لأحاسيس

تنبع من قلبه ومن شعوره، ولعل أجود الشعر حقيقة هو أكثره علوقاً بالنفس لأنها مصدر التأثر والانفعال. وكيف إذا كان الأمر يتعلق بشاعر كالمتنبي أحس بالاندفاع نحو المُثُل التي تتطلب جرأة وشجاعة وفروسية وبطولة؟ فالمدح في البطولة عند المتنبي يتصل بالعمق عند صياغته وأما في غيرها فلا يمكن أن يتجاوز السطح الظاهري من قلبه.

ولعل المتنبي عند مواكبته لسيف الدولة لم يسجِّل أحداث سيف الدولة وشمائله وحسب إنما «سجل نفسه في مشاعرها المختلفة في فرحها وحزنها، في حبها وكرهها في تعاليها وانقباضها، في طموحها وانقباضها، في اطمئنانها وقلقها.

وإذا كان المتنبي قد أجاد وحلق في مدح سيف الدولة فلعلمه أن كلامه كان على مستوى قدرات ممدوحه الأدبية واللغوية والشعرية والبيانية إضافة إلى المكانة التي كان يتحلى بها رجال بلاطه. فهو بهذا صناع حاذق تجاوز قدرات النخبة الرائدة في زمانه. الأمر الذي خلق له حساداً كثيرين، كما ألمحنا قبل قليل ـ استطاعو أن يعرضوا به ويوغروا صدر الأمير عليه لأنه كان، لتعالي نفسه واعتداده بها، يقف من الأمير موقف الند للند، وهو لم يكن كلفاً به إلا لأنه يحمل نفس الصفات التي يراها في العربي المثال الذي كان يرنو إليه منذ أن أبصر النور وتعمقت نفسه بحقيقة الأمور. وأما موقفه من

الناس فقد كان دون ذلك حيث ترك في كل حاشية دخلها حساداً وأعداء «كابن كروَّس في حاشية بدر بن عمار ومثله في حاشية أبي العشائر، وما أكثرهم في حاشية سيف الدولة»، حتى قال فيه الواحدي، وهو من شراح ديوانه: «ولكن الرجل (المتنبي) سيىء الرأي، وسوء رأيه أخرجه من حضرة سيف الدولة». وسوء رأيه هذا دليل على أنه لا يعرف المداراة إذ لا شيء أصعب من مداراة الحساد.

لقد استجاب سيف الدولة لأقوال المغرضين وتلوّن عليه ولم يثبت معه على حال، فلم يجد المتنبي بعد ذلك إلا الرحيل وخصوصاً بعد أن رماه سيف الدولة بدواة أسالت الدماء على وجهه فقال المتنبي على الفور ارتجالاً:

إن كان سرَّكُمُ ما قال حاسدنا
فما لجرح إذا أرضاكم ألمُ

وقيل كذلك ان ابن خالويه، وهو أستاذ سيف الدولة، قد ضربه بمفتاح كان يحمله، فغضب أبو الطيب وغادر حلب متوجهاً إلى دمشق في أواسط سنة ٣٤٦هـ - ٩٥٧م.

تجلت في هذه المرحلة عظمة المتنبي في سمو نفسه وبعد همته واندفاعه في إظهار عظمة العرب ورحابة الإسلام، كما تجلت عظمته في دقة تصويره للحروب وهو يجسد بطولات

سيف الدولة فيها خاصة مما نستدل على أنه كان عارفاً بأسرار الجيوش وأساليب القتال. وقد ضمن شعره الكثير من الحكم التي ذهبت أمثالاً على ألسنة الناس، أما الأسلوب فقد ابتعد به المتنبي عن التكلف «وجرى في شعره على السليقة، فأخذ هذا الشعر يتدفق حماسة وفخراً» واندفاعاً نحو الجهاد في سبيل الخير والحق والجمال.

المرحلة الثالثة من حياة المتنبي
في رحاب كافور
(٣٤٦ - ٣٥٠هـ)

وصل المتنبي إلى دمشق وعليها، من قبل الإخشيد، والٍ يهودي يدعى ابن ملك، والتمس من المتنبي أن يمدحه فلم يعره شاعرنا أذناً صاغية؛ الأمر الذي جعل ابن ملك يخبر كافوراً الإخشيدي عن وجود المتنبي في قبضته بدمشق، فأمره أن يرسله إليه. وعندما أحس المتنبي بأن دمشق تضيق به انطلق إلى الرملة فاستقبله أميرها الحسن بن عبدالله بن طغج بالهدايا وحمله على فرس جواد وقلده سيفاً محلًّى واعتذر المتنبي عن مدحه. ثم ما لبث كافور أن اتصل بابن طغج قائلاً: أترونه (المتنبي) يبلغ الرملة ولا يبلغ إلينا؟! ثم لم يلبث كافور، أن كتب إلى المتنبي نفسه يستدعيه فوجد الشاعر أن من الواجب عليه الذهاب إلى مصر والمثول أمام كافور.

لقد كان كافور عبداً حبشياً اشتراه محمد بن طغج الإخشيد الذي أسس الدولة الإخشيدية في مصر. وكان كافور

على جـانب من الـذكـاء خـولـه الارتقـاء في المنـاصب حتى أصبح قـائـداً لجيـوش الإخشيـد فقـاد الجيـوش ضـد ابن رائق وضد سيف الدولة فهزمـه وأخرجـه من دمشق بل ومن حلب نفسها، ثم لم يلبث كافور أن ترك له حلب، ومصر لابن الإخشيد أنوجور وذلك سنة ٣٣٥ بعد وفاة الإخشيد.

وانتصار كافور على ابن رائق وعلى سيف الدولة، أطلق يده على مقدَّرات دولة الإخشيد، وضيق الخناق على أُنوجور الذي صمم على الخروج إلى الرملة، فوشت أمُّه به إلى كافور فمنعه عن رغبته، ثم لم يلبث أن توفي سنة ٣٤٩هـ، مما اضطر كافور الذهاب إلى دار الخلافة حيث ضمن بقاء الولاية في بني الإخشيد وتعيين علي مكان انوجور على ولاية مصر. ولكن علياً هذا ما لبث أن مات واستقل كافور بحكم مصر سنة ٣٥٥هـ. وبقي على سدتها حتى توفي سنة ٣٥٦.

إلى جانب ذكاء كافور وحنكته السياسية، فقد كان على جانب لا بأس به من الدراية التامة بعلوم اللغة العربية وآدابها. بـدليل جـوابه على بيت المتنبي الـذي يندد فيـه بمقتـل شبيب الخارجي إذ يقول:

وقـد قَتَـلَ الأقـران حتـى قـتـلْتَـه
بـأَضْـعَـف قِـرْن فـي أذلِّ مـكـان

فأجابه كافور على الفور لإحساسه بالتعريض به قائلاً:
«لا والله بل بأشد قرن في أعز مكان».

ومن صفات كافور، إلى ذلك، حبه للعلم والعلماء واستماعه إلى الشعراء الذين كان يجيزهم ويجزل لهم العطاء. إضافة إلى أنه كان ديناً متواضعاً سخياً كثير الهبات والخلع على حد تعبير المقريزي في خططه.

هذا كافور في كتب التاريخ والأدب ولكنه في كافوريات المتنبي فدْم غبي يباع في الأسواق بأبخس الأثمان وهو دامي الأذن نكد منحرف ولا شيء يقدر على تقويمه إلا العصا التي ينبغي أن تبقى مشهورة فوق رأسه وبين كتفيه حتى تطوعه ويسهل قياده.

أما غرض كافور من دعوة المتنبي فهو كغرض أي رجل يسعى إلى المجد والشهرة وذيوع الصيت، ولا شيء يقود إلى ذلك إلا شعر شاعر مفوه كالمتنبي. وأما غرض المتنبي عند كافور رغبته في أن يوليه كافورُ على صيدا. وقام المتنبي بكل ما يمكنه في سبيل تحقيق تلك الرغبة التي كان كافور قد وعده بها. ولكنه لم ينل من كافور سوى المماطلة والتسويف الأمر الذي جعل المتنبي يفقد الأمل من انجاز ذلك الوعد الذي بذل في سبيله ماء وجهه بعد أن تخلى عن كثير

من الشروط التي كان قد اشترطها على سيف الدولة سابقاً إذ أنه كان يلقي شعره بين يدي كافور وهو واقف وعلى عكس ما كان يحدث في حضرة سيف الدولة. وعندما سئل كافور عن تلك المماطلة قال: «هو في الفقر وعدم العون سمت نفسه إلى النُّبُوَّة، فكيف يكون أمره إذا أصاب الولاية».

وكافور بهذا الجواب سياسي داهية محنك ولا يمكن أن تخفى عليه خافية مما جاء في شعر المتنبي من التعريض به تصريحاً وتلميحاً. وإذا تأملنا قوله يمدحه:

أُغالِبُ فيك الشَّوْقَ والشوقُ أغْلَبُ
وأعْجَبُ من ذا الهَجْرِ والوَصْلُ أعجبُ

فماذا نرى؟ فالضمير من «فيكَ» يرجع إلى سيف الدولة، ويريد بالهجر مفارقته سيف الدولة، وبالوصل مقدمه على كافور، ثم يزيد بقوله:

أما تَغْلَطُ الأيامُ فيَّ بأنْ أرى
بغيضاً تُنَائي أو حبيباً تُقَرِّبُ
عشيَّة أَخْفَى الناسُ بي من جَفَوْتُهُ
وأهدَى الطريقين التي أتَجَنَّبُ

وإذا كان كافور، كما أشرنا، أديباً من أدباء عصره وذواقة للأدب فهل تخفى عليه هذه الضمائر التي تعود إلى حنين

المتنبي إلى سيف الدولة؟ ولنقرأ هذا البيت:

إنـمـا الجـلـد ملبسٌ وابـيـضـاضُ الـ
ـنفسِ خيـرٌ مـن ابـيـضـاض الـقـبـاء

ألا ترى أن في هذا القول سخرية من خلال تعريضه به لشدة سواده الذي جعله المتنبي مادة مدحه؟

ألا تلاحظ أن مثل هذه الأقوال، في معرض المدح، لا يمكن أن تحمل في نفس كافور إلا الحيطة والحذر من مادحه والبغض له وتحيُّن الفرص للانقضاض عليه في الوقت المناسب؟

لقد أقام المتنبي في مصر من جمادى الثانية سنة ٣٤٦ هـ إلى التاسع من ذي الحجة سنة ٣٥٠هـ، مدح فيها كافوراً بتسع قصائد وقطعتين. ويعادل ما أنتجه المتنبي في كافور ربع ما أنتجه في سيف الدولة.

ولم يغرب عن بال المتنبي، في حضرة كافور، ما كانت عليه مصر، والفسطاط خصوصاً، من المستوى الثقافي البالغ الأهمية، الأمر الذي جعل المتنبي يدقق شعره ولا ينشده إلا بعد أن يخضعه لامتحانٍ عسير من النقد والتمحيص، ولأجل ذلك قال الدكتور طه حسين «ولست أغلو إن قلت: إن شعر المتنبي في مصر أقلُّ سقطاً من شعره في حلب، لأن المتنبي

فيما يظهر كان يقدر العلماء والمثقفين المصريين، وثَمَّ سببٌ آخر لا بد من الإلمام به والإشارة إليه. فأكثر شعر المتنبي في حلب، حين يقول الشعر في المناسبات المختلفة، مرتجلاً حيناً وطائعاً للأمر حيناً، ومتكلفاً حيناً آخر ومتكلفاً ليثبت أمام منافسيه مرة ثالثة. أما في مصر فشعر المناسبات لا يكاد يوجد في الديوان ولم يَحْتَج الشاعر إلى الارتجال؛ لأن اتصاله بكافور لم يكن من القوة بحيث يثير حاجته إلى ذلك... ومهما يكن من شيء فإن شعر المتنبي الذي قاله في مصر أو الذي ألهمته إياه مصر مختار كله، بريء من السخف واللغو أو كاد».

وإذا قلبت النظر في شعر المتنبي في كافور فإنك ستجد أن أبيات المديح فيها معدودة «وما بقي منها يدور: إما حول نفسه، وإما حول مقامه بحلب وحنينه إلى سيف الدولة وأيامه الكريمة، وقد تخللتْ كل ذلك فلسفة حزينة متشائمة وإن لم يقصد إليها، وإنما أملتها ملابسات حياته، فأتت في موضعها من قصائده ملونة بإحساسه»، على حد قول عبد المجيد دياب.

أما من قابلهم المتنبي في مصر منهم جعفر بن الفرات وابن خنزابة وأبو شجاع فاتك الذي أهدى المتنبي هدايا ثمينة فمدحه أبو الطيب بقصيدته التي مطلعها:

لا خيْـلَ عنـدك تُهْـديهـا ولا مـالُ
فلْيُسْعِـدِ النـطق إن لم تُسعِـدِ الحـالُ

إلى أن يقول:

وقـد أطال ثـنـائـي طـولُ لابِـسِـهِ
إن الـثـنـاءَ عـلى الـتـنـبـال تـنـبـالُ

ولعل هذا القصيدة التي تجمل تعريضاً واضحاً بكافور قد جعلت أبا الطيب يعزم على الرحيل عن مصر، وهو يتحين الفرص لتنفيذ ذلك. وبعد أن انقطع أبو الطيب عن مدح كافور ستة عشر شهراً عاد إلى مدحه ليشعره أنه بات قرير العين في بلاطه وكان ذلك سنة ٣٤٩هـ.

ولم يكن لأبي الطيب من سلوى، في الديار المصرية، سوى أبي شجاع فاتك الذي توفي في شوال من سنة ٣٥٠هـ فأحس المتنبي عند ذلك بالفراغ النفسي الرهيب فأخذ جدياً يتدبر أمر الرحيل حتى تم له ما أراد بعد وفاة فاتك بشهرين، في نفس السنة المذكورة أعلاه حيث هرب ليلة عيد الأضحى بعد أن أرسل إلى أبي بكر الفرغاني رقعة طلب منه أن يسلمها إلى كافور عشية العيد عند العتمة قائلاً: فقد هنيته بها وذكرت عذري. وكانت تلك الرقعة تحمل قصيدته المشهورة في هجاء كافور، ومطلعها:

عيـدٌ بـأيـةِ حـالٍ عُـدْتَ يـا عيـدُ
بمـا مضـى أمْ لأمْـرٍ فيـك تـجـديـدُ

فعاش كافور بهذا الهجاء حياة مرة لم يعرف معها طعم الحلاوة وندم ندماً عظيماً لأنه لم يهتم بأبي الطيب من ناحية، ومن ناحية ثانية كيف أصغى للوشاة الذين أوقعوا بينه وبين الشاعر.

المرحلة الرابعة من حياة المتنبي
في العراق وفارس
(٣٥٠ - ٣٥٤هـ)

لم يكن مطلب المتنبي من كافور مالاً لأنه كان غنيّاً عن ذلك بفضل ما أغدقه عليه سيف الدولة أثناء وجوده بحلب، وإنما كان مطلبه المحدد الذي نوه إليه بشعره ضيعة أو ولاية بقوله:

إذا لم تُنِطْ بي ضيعة أو ولاية
فجودك يكسوني وشغلك يسلب

ولكن مماطلة كافور له جعلته يعود إلى العراق وهو يجر أذيال الخيبة وانقطاع الأمل، فدخل مسقط رأسه، الكوفة سنة ٣٥١هـ بعد عراك عنيف بينه وبين عبيده ومرافقيه من ناحية، وبينه وبين نفسه من ناحية ثانية، وبينه وبين أبناء مجتمعه من ناحية ثالثة، ومن ناحية رابعة بينه وبين القضاء الذي غيب عنه الصدر، صاحب القلب الكبير، الذي ينبغي أن يهب لاستقباله، وصار يهوى لمثوى صاحبته التراب وما ضم. . . لقد حل في الكوفة بعد أن بَعُدَ عنها ستة عشر عاماً وهو غير

مكترث بمن كانوا يوجهون إليه نظرات الحقد والشماتة.

ولم يطل بقاء المتنبي في الكوفة إذ غزاها، أثناء وجوده فيها، رجل خارجي من بني كلاب على رأس مجموعة من المقاتلين الخوارج فانبرى لهم دلير بن لشكروز، فهربوا قبل وصوله، فمدحه المتنبي وهو في الميدان مما جعل دلير يكرمه ويحمله على فرس بمركب من ذهب، وكان ذلك سنة ٣٥٣هـ. ولم يلبث المتنبي أن غادر الكوفة إلى بغداد في تلك السنة.

ولما وصل المتنبي بغداد نزل على صديق له حميم هو علي بن حمزة البصري، وأقام عنده في داره ما بقيَ في بغداد.

وفي بغداد، آنذاك، الخليفة العباسي ووزيره معز الدولة ابن بويه؛ وكان المهلبي، وزير معز الدولة، أديباً وشاعراً اجتمع حوله مجموعة من الأدباء والشعراء منهم: القاضي التنوخي وأبو الفرج الأصفهاني والسريّ الرفّاء وابن البقال، وكان المهلبي إضافة إلى ذلك «جواداً ذا مروءة، معواناً لأصحاب الحاجات».

ولكن المتنبي لم يمدح أحداً من هؤلاء الثلاثة وخصوصاً المهلبي الذي طلب أصحابه من المتنبي أن يمدحه، وقيل إن

هذا الوزير قد أعد لأبي الطيب هدية عظيمة إن هو مدحه. ولكن إعراض المتنبي عن ذلك جعل المهلبي يفرق تلك الهدية على الشعراء في حضرته وقد ألبهم عليه فأعادوا إلى الأذهان تشبث المتنبي بنزعته العلوية، فراحوا يغمزون من نسبه ويتهمونه بالشح والتقتير ويتماجنون عليه ويسمعونه كل ما من شأنه أن يغيظه وينغص عليه حياته، ولكن المتنبي لم يجبهم على أهاجيهم وإنما قال: إني قد فرغت من إجابتهم بقولي لمن هم أرفع طبقة منهم في الشعراء:

أرى المتشاعرين غَرُوا بذمي
ومن ذا يَحمِدِ الداءَ العضالا
ومن يك ذا فمٍ مُرٍّ مريض
يجد مراً به الماءَ الزُّلالا

وقولي.

أفي كلِّ يَوْمٍ تحت ضِبْني شُوَيْعِرٌ
ضعيفٌ يقاويني قصيرٌ يُطَاوِلُ

كل ذلك ولم يتحرج المتنبي في الرد عليهم وعاد إلى الكوفة، ثم ما لبث أن عاد إلى بغداد بعد أن مات المهلبي الذي أثار حوله بأنانيته ضجة عظيمة ليس فيها ما ينعش النفس ويجمل الحياة. كما عادت إلى نفس المتنبي «نقمته على

الأوضاع السياسية ومستغلي الحكم من الموالي والأعاجم».

وبينما هو كذلك إذ فوجىء بوفاة خولة أخت سيف الدولة فتحركت في نفسه لواعج الحنين وبوادر الذكرى فأرسل في رثائها قصيدة طويلة غلب عليها تصوير لوعته التي نمَّت عن حب دفين في نفسه. ويستخلق محمد شاكر من هذا الحب سبباً من أسباب وقوع الجفوة بين الشاعر وسيف الدولة.

وبينما كان المتنبي في طريقه إلى فارس، وهو يصطحب معه راويته وصديقه علي بن حمزة البصري، استدعاه ابن العميد لزيارته بأرَّجان. فلم يخيب المتنبي طلبه وأخبره يقدم مما جعل أبا الفضل بن العميد يخرج لاستقباله بموكب حاشد سنة ٣٥٤هـ فمدحه المتنبي عرفاناً وتقديراً بقصيدته التي مطلعها:

بـاد هـواك صبـرت أم لـم تـصبـرا
وبـكـاك إلم يـجـرِ دمـعـك أو جـرى

إلى أن يقول:

مـن مبـلغ الأعـراب أنـي بـعـدهـا
جـالـست رِسـطالـيس والاسـكـنـدرا
وسـمـعـت بـطليـمـوس دَارِسَ كُـتْـبـهِ
مُـتـمـلِّكـاً مُـتـبـدِّيـاً مُـتـحـضِّـرا

ولـقـيـت كــل الـفــاضــلـين كـأنــمــا
رد الإلٰــه نــفـــوســـهـــم والأعـــصـــرا

هذا، ولا ينبغي أن يغرب عن بالنا أن ابن العميد كان رجلاً عالماً في السياسة والفلسفة والأدب.

وممن حاول الاتصال بالمتنبي وهو بحضرة ابن العميد، الصاحب بن عباد، ولم يكنِ قد استوزر بعد، وتمنى لو يمدحه ولكن أبا الطيب رفض أن ينزل إلى مستوى الكتبة في بلاط ابن العميد، الأمر الذي جعل الصاحب ينصرف بكتاباته إلى تبيين مثالب المتنبي من خلال شعره.

ولقد وصل خبر المتنبي إلى شيراز، فأرسل إليه عضد الدولة طالباً زيارته، فتردد المتنبي أول الأمر، ولكن ابن العميد نصحه بأن يلبي تلك الدعوة لأن عضد الدولة رجل شهم وقد يصلك بأضعاف ما وصلتك به. فقال المتنبي: «إني ملقًى من هؤلاء الملوك، أقصد الواحد بعد الواحد وأملِّكُهْم شيئاً سيبقى بقاء النَّيِّرَيْن ويعطونني عرضاً فانياً، ولي صخرات واختيارات فيعوقونني عن مرادي، فأحتاج إلى مفارقتهم على أقبح الوجوه؛ فكاتب ابنُ العميد عَضُدَ الدولة بهذا الحديث فورد الجواب بأنه مُمَلَّكٌ مراده في المقام والظعن».

فذهب المتنبي إلى عضد الدولة مطمئن النفس مرتاح البال فأقام عنده فترة قصيرة وصفها بقوله؟ : «ما خدمت عيناي قلبي كاليوم» ولقد قال المتنبي فيه ست قصائد وأرجوزة طردية وقطعة، ولقد كانت إحدى القصائد تعزية بعمة عضد الدولة، وليس فيها من التاريخ غير وصفه لهزيمة هشوذان الكردي الثائر على بني بويه في قصيدتين.

ولعل طبع المتنبي قد خانه في مدح عضد الدولة كما خانه في مدح ابن العميد قبله، فهو ليس من قلبه وإحساسه، وشعره فيهما بيِّن الدلالة على أنه كان متكلفاً الأمر الذي دفع عضد الدولة إلى القول: «المتنبي قال جيد شعره بالغرب».

ولقد كان لتأثير الطبيعة الفارسية أثر بيِّنٌ على نفسية المتنبي إذ خلقت عنده جواً من الراحة والطمأنينة فتأثر بها ووصفها أجمل وصف مع أن أبا الطيب لم يمكث في شيراز سوى مدة قصيرة خلال العام ٣٥٤هـ، ودقة وصف المتنبي في طبيعة فارس جعل طه حسين يقول: «وما أعرف أن المتنبي أتقن وصف الطبيعة في طور من أطوار حياته كما أتقن في هذا الطور، فوصفه لشعب بوان رائع حقاً... وفي أرجوزته اللامية التي وصف فيها الصيد... ارتقى فيها الشاعر إلى أرفع ما أتيح له أن يبلغ من الإجادة الفنية الخالصة، وهي التي امتزجت فيها نفس الشاعر بالطبيعة

المادية امتزاجاً مدهشاً كاد ينسيه نفسه كما كاد يصرفه عن عضد الدولة. . . وما رأيت طبيعة الشاعر أخذت بحظ من الخصب والغزارة، كما رأيتها في هذه الأرجوزة».

وعندما وجد عضد الدولة أن أبا الطيب يريد الذهاب إلى العراق لم يحل بينه وبين حريته بل أغدق على الشاعر الكثير من الهدايا وأكد له وعده بما التزم به فودعه المتنبي وفي نيته أن يعود إليه بعد أن يرى في الكوفة أهله ومحبيه.

ولقد سار المتنبي مسافة خمسين فرسخاً حتى وصل إلى واسط، في شهر رمضان من سنة ٣٥٤، وكتب فيها آخر قصائده وهي القصيدة الكافية التي ودع فيها عضد الدولة.

وعندما أصبح المتنبي على مقربة من دير العاقول الذي يبعد عن بغداد مسافة خمسة عشر فرسخاً هجم عليه فاتك الأسدي، خال ضبة بن يزيد العيني الذي هجاه أبو الطيب هجاء مقذعاً، في قصيدة طويلة مطلعها:

ما أنصف القوم ضبة وأمه الطرطبة
وإنما قلت ما قلت رحمة لا محبة

ولقد تمكن فاتك، مع مجموعة من بني عمه، من قتل المتنبي وغلامه وولده محسداً انتقاماً لشرف ابن أخته ضبة حيث ظفر بالبغال المحملة بالذهب والطيب والتجملات

النفيسة والكتب الثمينة وكل ما بذل المتنبي من أجله عمره وخصوصاً كتبه ودفاتره التي أحكمها قراءة وتصحيحاً.

وهناك رواية أخرى تقول إن عضد الدولة، عندما ابتعد عنه المتنبي، أرسل من يسأله عن عطاء سيف الدولة وعطاء عضد الدولة فأجاب أبو الطيب: إن سيف الدولة يعطي طبعاً وعضد الدولة يعطي تطبعاً. فغضب عضد الدولة فأرسل من جهز عليه من قوم ضبة.

وقيل كذلك إن الخفراء قد طلبوا منه خمسين درهماً مقابل حمايته فرفض ذلك لشحه واعتداده، وحدث له ما حدث فرثاه المظفّر بن علي الطبسي قائلاً:

لا رعى الله سِرْبَ هذا الزمانِ
إذ دهانا بمثلِ ذاك اللسانِ
ما رأى الناسُ ثانيَ المتنبي
أيُّ ثانٍ يُرَى لبِكْرِ الزمانِ

ولكن من الثابت تاريخياً أن فاتك الأسدي ما سُمِّيَ فاتكاً إلا لكثرة ما سفكه من دماء الأبرياء لأنه كان قاطع طرق ورجل عصابات يعيش على السلب والنهب. ولقد كان معروفاً أن المتنبي إذا أراد الخروج من بلد إلى بلد يحمل معه كل ما يملك فانتهز قوم ضبة، وعلى رأسهم فاتك،

فرصة خروج المتنبي، ومعه جنى عمره، وانقضوا عليه طمعاً بما يحمل وهم يدعون ظاهرياً أنهم ينتقمون لشرفهم، وفي الحقيقة لا يبتغون إلا ما معه؛ وقد يكون الأمر أبعد من ذلك إذ أن المتنبي، عندما كان في منزل علي بن حمزة، قد اجتمع حوله شباب بغداد وفتيانها وهم جميعاً، من أبناء الطبقة الوسطى، الأمر الذي دفع شعراء بغداد، ويزيد عددهم على السبعين قد هجوه وعابوا عليه تجمع أبناء الطبقة الوسطى حوله. وكان ذلك بتحريض من الوزير المهلبي ومعز الدولة البويهي والصاحب بن عباد. ألا يكون أنه قد نمت علاقة تنظيمية معينة بين المتنبي وأبناء الطبقة الوسطى من الشباب؟؟ فدبر له ذلك الكمين الذي قتل فيه لمنع الاتصال بينه وبين أبناء تلك الطبقة من المثقفين الشباب؟! وعلاقة فاتك ما هي إلاّ أن يكون قد استؤجِرَ هذا الأخير ونفذت بحقه عملية القتل المدبرة؟!

ديوان أبي الطيب وشعره

يعتمد الدارس عموماً، وخصوصاً دارس الأدب، على النصوص المسندة، إلى أصحابها، إسناداً صحيحاً، حتى تكون النتائج، في الأبحاث المدروسة، والآثار المحققة والدراسات المقارنة، نتائج تطمئن إليها العقول، وتأنس فيها الأذواق الحساسة، وتنفعل بها النفوس المرهفة الطيبة.

وديوان المتنبي هو المرجع الوحيد، بل هو المصدر الوحيد الذي نركن إليه إذ أن أبا الطيب نفسه قد أولاه اهتماماً خاصاً لم نره عند غيره من الشعراء الذين سبقوه أو عاصروه أو أتوا بعده. ولعل هذا الاهتمام من أبي الطيب بديوانه من ناحية واهتمام الناس، بهذا الديوان، من ناحية ثانية يجعلنا نقف منه موقفاً مطمئناً يجعلنا نستشف من خلاله تاريخ حياة المتنبي الذي اعتمد في ترتيبه التسلسل الزمنيّ بحيث أتت معظم قصائده في مواضعها حسب تنامي حياة المتنبي منذ أن تفتحت شاعريته إلى أن فارق الحياة سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥)[1].

---

(١) عبد الوهاب عزام. ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام. دار المعارف مصر. ص ٢١.

ولقد قرأ أبو الطيب شعره على الناس وأملى على «من قرأه مقدمات قصائده بتواريخها ومن المؤكد أن نسخاً كثيرة من الديوان قد صححت أو قرئت على أصول مقروءة على أبي الطيب نفسه، وأملى شرحاً لبعض أبياته أو لبعض كلمات له، وناقشه فيها من أخذوا عنه خاصة ابن جني»[٢]. والذي يؤكد ذلك ما قاله أحد شراح أبي الطيب وهو أبو الحسن الواحدي، في آخر شرحه «هذا آخر ما اشتمل عليه ديوان أبي الطيب الذي رتبه بنفسه وهو خمسة آلاف وأربعمائة وأربع وتسعون قافية»[٣]. وكما جاء في مقدمة نسخة بدار الكتب المصرية رقم (٥٣٠ أدب) «وجميع ما فيه من تفسير معنى وشرح غريب واختلاف لغة فهو من إملائه عند القراءة عليه»، أي من إملاء المتنبي نفسه.

أما رواية ديوان المتنبي فقد وافانا بها رواة ثقات من أمثال أبي الفتح بن جني الذي كان يناقش المتنبي في الكثير من ألفاظه وتعابيره ومعانيه تاركاً لنا شرحه المشهور «الفِسْر» وهو شرح ديوان أبي الطيب. وكذلك روى شعر المتنبي صديقه عليّ بن حمزة البصري الذي نزل عليه المتنبي في بغداد

(٢) عبد المجيد دياب. أبو الطيب. الهيئة المصرية العامة. ص ٣٤.
(٣) عزام. م.ن. ص ٢٢.

ضيفاً ورافقه إلى أن قُتل المتنبي في دير العاقول وحفظ ديوانه بعد ذلك.

وقد روى العكبري عن أبي الفضل العروضي قوله في الرد على ابن جني:

«ما أصنع برجل ادَّعى أنه قرأ على المتنبي ثم يروي هذه الرواية ويفسر هذا التفسير. وقد صحَّت روايتُنا عن جماعة منهم محمد بن العباس الخوارزمي، وأبو محمد بن القاسم الجرمي، وأبو الحسن الرُّخجي وأبو بكر الشعراني وعدة من الرواة يطول ذكرهم»[٤]. وهؤلاء الرجال الذين ذكرهم العُكْبَري هم من الثقات الذين اهتموا بشعر المتنبي وعملوا على نشره وتوضيحه وتدريسه في شتى الأقطار العربية والذي يؤكد ذلك قول العكبري نفسه: «وقرأته قراءة فهم وضبط على الشيخ الإمام أبي الحزم مكيّ بن ريّان الماكسيني بالموصل سنة تسع وتسعين وخمسمائة. وقرأته (ديوان المتنبي) بالديار المصرية على الشيخ أبي محمد عبد المنعم بن صباح التيمي النحوي»[٥].

ولا يزال ديوان أبي الطيب يحظى بكل عناية من الرواية والشرح والتحقيق. ولقد شرحه واهتم به في العصر الحديث

---

(٤) العكبري. شرح ديوان المتنبي. ج ١ ص ٢٧٦.

(٥) عزام. م.س. ص ٢٣.

كل من الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٧١) وعبد الوهاب عزام والبرقوقي. ولقد بلغ عدد شراح هذا الديوان منذ أن تركه صاحبه إلى أيامنا هذه ما يزيد على الخمسين شرحاً إضافة إلى النقاد والدارسين الذين لن تتوقف مسيرتهم عن الدرس والتنقيب والتمحيص الأمر الذي يدفعنا إلى القول إن ديوان المتنبي خاصة كبحر بعيد الأغوار يجد فيه الغواصون الحاذقون درراً ثمينة لا تنقطع كلما أمعنوا في الغوص إيغالاً.

وأما من حيث نسبة الديوان إلى أبي الطيب فأمر لا غبار عليه خصوصاً وأن المتنبي، وكما تشير الروايات، قد اهتم بترتيب ديوانه بنفسه، وأن الناس كذلك، من محترفي مهنة الأدب في تتبع آثاره، قد رصدوا شعر الرجل لما كان يحمل هذا الشعر من معان جديدة. وما يكاد هذا الشعر يخرج من فم صاحبه حتى يشيع ويصبح على كل شفة ولسان، ولا ريب بعد ذلك أن تجد الناس يتحلقون حول المتنبي، وهو في بيت عليّ بن حمزة الذي حفظ لنا ديوانه من الضياع، و«قد جذبت شخصيته الشباب قبل كل شيء فرأى خصومه في ذلك فرصةً ليذيعوا أن المستمعين إليه كانوا من غير المميزين، ولكنك ترى في الندوة عليّ بن حمزة (نفسه) الذي لم يكن حدّ لإعجابه بالشاعر وحماسته له»[٦]. وكان بيت علي بن حمزة

(٦) دياب. م.س. ص ٣٦.

في ربض حميد، في بغداد، ولا شك أن القارىء يعرف موقع بغداد في ذلك الوقت إذ أنها كانت حاضرة العلم والثقافة والأدب، فانقسم الناس فيها، وفي عموم الديار الإسلامية، فريقين: فريق يناصر الشاعر ويتحمس للدفاع عن شعره كل الحماس. وفريق يعمل، بكل ما أوتي، على الكيد له وتبيين مثالبه ورصد كل ما في شعره من الهنات. وابن جني على رأس الفريق الأول إذ أنه بذل كل ما في وسعه، كي يظهر أن أبا الطيب فوق الشبهات في شعره وهو في هذا الميدان لا يبارى لأنه كان على دراية تامة بكل ما قاله أبو الطيب وذلك لأنه كان قد استوضح من المتنبي نفسه عن كل ما غمض من ألفاظه ومعانيه لأن ابن جني كان من مجالسيه بشكل دائم. وكان على رأس الفريق الثاني، في الفترة الأخيرة من حياة المتنبي معز الدولة والصاحب بن عباد، والوزير المهلبي، الذين حرضوا ضده شعراء بغداد، لأن المتنبي ترفع عن مدحهم ولم يكترث بهم. ولكنه لم يردّ على أولئك الشعراء بل اكتفى مذكراً، في الرد عليهم، بما قاله في الذين حاولوا الكيد له وهو في بلاط سيف الدولة، قبل ذلك، وفي مقدمة أولئك أبو فراس الحمداني وابن خالويه والخالديان وفيهم يقول:

(٧) زكريا المحاسني. أبو الطيب المتنبي. بيروت. ص ٥٤.

أفي كــلِّ يــومٍ تحتَ ضِبْني شُــوَيْعــرٌ
ضَـعـيـفٌ يُـقَـاوِيـنـي قَـصـيـرٌ يُـطَاوِلُ

وقيل له لماذا لا تهجو هؤلاء الشعراء في بغداد فقال: لقد فرغت من الرد عليهم حين قلت فيمن هم أعلى منهم مرتبة:

أرى الـمـتـشـاعـريـن غُـرُوا بـذمـي
وَمَــنْ ذا يَـحْـمُـدُ الـداءَ الـعُـضَـالا
ومــن يــك ذا فــم مــرٍّ مــريضٍ
يــجِــدْ مُــرّاً بــهِ الــمــاءَ الــزُّلالا

ومن شعراء بغداد، الذين يزيد عددهم على السبعين، ابن سكرة وابن لنكك وابن الحجاج.

والمعركة بين مؤيدي أبي الطيب ومنافسيه قد هيأت لنا القاضي الجرجاني المتوفى سنة ٤٩٢ فوضع كتابه المشهور «الوساطة بين المتنبي وخصومه» حيث وقف في هذه الوساطة موقفاً موضوعياً بيّن لنا فيه ما للمتنبي وما عليه. وكذلك وضع لنا أبو الحسن الإفريقي المعروف «بالمتيم» في أواسط القرن الرابع، كتاباً سماه «الانتصار المنبي عن فضل المتنبي»؛ كما وضع يوسف البديعي المتوفى سنة ١٠٧٣هـ كتابه المعروف «الصبح المنبي عن حيثية المتنبي».

ولم تقتصر شهرة المتنبي على المشرق العربي بل تجاوزته إلى أبعد من ذلك، ومروراً بالأندلس، وخصوصاً أن الكلام الجيّد، الذي يتناول أحاسيس الإنسان وتطلعاته، يذهب إلى جميع أقطار العالم دون جواز سفر، إلى أن برزت حركة الاستشراق حيث تهيأ لشعر المتنبي المستشرق غوليوس فعرّف به ونشر له مقطعاً من شعره سنة ١٦٥٦ ميلادية. وفي القرن التاسع عشر تُرْجمت أشعار المتنبي إلى اللغات الأجنبية على يد عدد من المستشرقين من أمثال رايسك وسلفستر دوساسي وهامر برغستال ونيكلسون وغوستاف شلومبرجين الذي ترجم للمتنبي وعرف به وبشعره[٨]، واسكندر قازايلييف الذي عرّف الروس على شاعرنا العظيم، وكذلك نرى المستشرق ماريوس كانار الذي اهتم بدراسة المتنبي والحمدانيين، وريجيس بلاشير الذي وضع كتابه: «شاعر عربي من القرن الرابع الهجري: أبو الطيب المتنبي»[٩].

وقد عُنِيَ عدد من المستشرقين بنواح معينة من شعر المتنبي كأن عالج لويس ماسينيون نزعة الحماسة عند المتنبي وردها إلى الحركة القرمطية التي بدأت في أواخر القرن

(٨) جوزيف الهاشم، أبو الطيب المتنبي. بيروت، ص ٢٧.
(٩) زكي المحاسني. م.س. ص ٦١.

الثالث الهجري وامتدت إلى ما بعد حياة المتنبي، ولقد ذهب ماسينيون إلى أن هذه النزعة هي نزعة دموية تعتمد على سفك الدماء. ويؤيد رأي ماسينيون كل من الدكتورين طه حسين في كتابه «مع المتنبي» وشوقي ضيف في كتابه «الفن ومذاهبه في الشعر العربي». أما الدكتور زكي المحاسني فيرى على العكس من ذلك بأن نزعة القوة والحماسة في شعر المتنبي ما هي إلا نزعة عربية أصيلة تعود جذورها إلى عمق الحياة العربية القائمة على المثل العليا في مقارعة الأعداء وخصوصاً أن القائمين على سدة الخلافة، في أيام المتنبي كانوا عاجزين، وأصحاب السلطة الفعليين هم من غير العرب[١٠].

ولا يسعنا بعد الحديث عن ديوان المتنبي إلا أن نشير إلى كتابين جديرين بالذكر ألا وهما: الأول: «أبو الطيب المتنبي في آثار الدارسين» للدكتور عبد الله الجبوري. والثاني «رائد الدراسة عن المتنبي» للسيدين كوركيس وميخائيل عواد. ومن خلال هذين الكتابين نتأكد أن ديوان المتنبي قد لقي من العناية ما لم يلقه أيٌّ ديوان غيره من دواوين الشعراء العرب، من الجاهلية إلى أيامنا هذه، بحيث يزيد عدد الدراسات، التي أنشئت عن شعره ولا تزال، على الألفي مصدر ومرجع،

(١٠) زكي المحاسني. م.س. ص ٦٢.

باللغة العربية والأجنبية، «موزعة بين كتاب ورسالة ومقالة ونُبَذٍ أُفردت له»[11].

وأما شعر المتنبي، بين دفتي ديوانه، وعلى تعدد شراحه وطبعاته، فإنه يمثل شخصية أبي الطيب تمثيلاً دقيقاً منذ أن بدأت رحلته من الكوفة إلى البادية وبر الشام وحلب ومصر والعراق وفارس والعراق مجدداً، إلى أن قتل على مقربة من بغداد سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م، كما رأينا عند استعراض سيرته.

ويمثل شعر المتنبي شخصيته من خلال مظهرين اثنين: مظهر خارجي جسماني، ومظهر داخلي نفساني.

أما من جهة مظهره الخارجي فنستطيع أن نتصور أنه رجل نحيل يغلب عليه الضعف والهزال الأمر الذي يجعلك لا تراه لولا مخاطبته إياك كقوله:

كفى بجسمي نُحُولاً أنني رجلٌ
لولا مخاطبتي إياك لم ترني

وهو مع هذا الضعف والنحول، قد أضنى جسمه السقم والتسهيد اللذان كانا يلازمانه وفي ذلك يقول:

جمعتْ بين جسم أحمد والسُّقْـ
ـم وبين الجفون والتسهيد

(١١) عصام السيوفي. العوامل السياسية في شعر المتنبي. بيروت. ص ١٠.

وهو كذلك قد أحب كل النحلاء إكراماً لنحوله الجسمي الذي كان شغوفاً به وعاشقاً له كقوله:

وإنــي لأعــشــق مــن أجــلكــم
نــحــولــي وكــلَّ امــرىء نــاحــلِ

ولقد اتصف المتنبي بفتوة وشباب ورونق ووسامة وشعْرٍ كثٍّ أسود توفر فوق جبينه وناسَ على أذنيه وقد تصور أن هذه الوفرة لا تحسن إلّا إلى الأبطال وهم في ساحات الوغى:

لا تــحــســن الــوفــرة حــتــى تُــرى
مــنــشــورة الــضــفــريــن يــوم الــقــتــال

كما أنه قد بكى تلك الوفرة وذاك الشباب بعد أن امتد به العمر وغزاه الشيب، ولم يعد لذاك الوجه رونقه وسماحته ووسامته كقوله:

ولـقــد بكـيتُ عـلى الشبــاب ولِـمَّـتـي
مُــســوَدَّةٌ ولــمــاءِ وجــهــي رونــق

وأبو الطيب يكره كثيراً التصنع والمتصنعين فهو لذلك ترك شَعْرَه على حاله عندما خالط الشيبُ لِمَّته:

ومن هــوى كــلِّ مَنْ لَـيْسَـتْ مُمَــوَّهَــةً
تــركتُ لــون مشيبـي غيــرَ مـخضــوب
ومن هوى الصدق في قـولي وفي عملي
رغِبْتُ عن شَـعَرٍ في الــرأس مـكــذوبِ

وقد يكون الشيب قد غزا شعر المتنبي مبكراً كما يظهر من خلال قوله:

راعتــكِ رائعــةُ البيــاضِ بمفــرقِي
وَلَــو أنَّهــا الأُولــى لــراعَ الأسْــحَــمُ
لــو كــان يُمكنني سَفَــرْتُ عــن الصبى
فــالــشيــب مــن قــبــل الأوانِ تــلثُّــمُ

ولكن هذا الشيب كان عزيزاً على قلب صاحبه لأنه إلفه وحبيبه وقد رافقه مسيرة الحياة الكبرى في جهاده الطويل فهو لا يحب مفارقته والعود عنه إلى الصبا على حبه له.

خُلِقتُ ألــوفــاً لــو رجعتُ إلى الصبــا
لـفــارقتُ شيبي مــوجَــعَ القلبِ بــاكيــا.

وذلك لأن الوفاء من طبع المتنبي ولا بد من متابعة الحياة برفقة الشيب براً به (بالشيب) ووفاء له.

وأما المظهر النفساني، في شعر أبي الطيب، فإننا نستطيع تلمُّسه، منذ أن تفتحت شاعريته وهو ما زال في ريعان الصبا، وقد رأى بأم عينه ما كان يدور في أيامه، على حداثته، من أحداث يندى لها جبين العقلاء خجلاً، وخصوصاً ضعف السلطة المركزية في بغداد، وانصراف الأمراء والقادة عن الاهتمام بأمور الناس والانصراف وراء اهتماماتهم بأمورهم

الذاتية، وابتعاد أصحاب الحل والربط عن ممارسة دورهم بشكل صحيح ولم يعد للعربي، يومذاك، أي رأي وأصبح الحكم، عموماً، بيد غير العرب من الناقمين كالإخشيديين والبويهيين والأتراك، اللهم إذا استثنينا دولة بني حمدان، في حلب؛ كل ذلك، إضافة إلى الفتن السياسية والخضات الاجتماعية، قد أثر في نفس المتنبي وترك على شعره بصمات لا يمكن إغفالها أو نكرانها.

لقد نقم المتنبي على مثل هذه التركيبة السياسية والاجتماعية، وأحسَّ، من خلال نفسه المتوثبة، أنه غريب عن ناس زمانه، كونهم قد تلاشت عندهم نزعة الطموح وانعدم لديهم الشعور بالكرامة والمسؤولية، فجمحت نفسه إلى العلا وتسامت روحه إلى المجد. فكيف به لا تجمح نفسه وتتسامى روحه وهو يحس أن بين جنبيه إباءً لا يُحد وعنفواناً لا يُضاهى إذ يقول:

وإني لمن قوم كأن نفوسهم
بها أنفٌ أن تسكنُ اللحمَ والعظما

وهو يعلم علم اليقين أن هذا التسامي والجموح وحب التعالي عما حوله لا يمكن أن يكون إلا بالجهاد والمثابرة فلنسمعه وهو يخاطب نفسه التي تشجعه وتحثه للوصول إلى المجد:

تـريـدين إدراكَ المعـالـي رخيصـةً
ولا بـدَّ دون الشهـدِ من إبـرِ النحـلِ

أو قوله:

فـلا عَـبـرَتْ بيَ سـاعـةٌ لا تُـعـزني
ولا صحبتنـي مهـجـةٌ تقبـل الـظُّلمـا

وإذا شئتَ أن تسألَ عن همة أبي الطيب فتراها في قوله:

هـمتـي هـمـةُ الـمـلوك ونـفـسـي
نـفسُ حـرٍ تـرى الـمـذلـة كـفـرا

أو قوله:

وفـؤادي مـن الـمـلوك وإن كـا
ن لـسـانـي يُـرى مـن الـشـعـراء

ولكن نزعة التعالي والاندفاع وراءها لم تقف عند حدٍّ في شعرالمتنبي، إذ أنها، وخصوصاً بعد أن كثر حساده في بلاط سيف الدولة، توصلت إلى أن تدفع بصاحبها إلى القول وهو في حضرة سيف الدولة نفسه:

سيعـلم الجمـع ممن ضـم مجـلسنـا
بـأنني خيـر من تـسعى بـه قـدم
أنـا الـذي نـظر الأعـمى إلـى أدبـي
وأسـمـعـتْ كـلمـاتـي مـن بـه صـمـم

أنــام مــلءَ جفــوني عـن شــواردهــا
ويـسهــرُ الـخَلْقُ جـرّاهــا ويـختـصـم

الـخيــل والـليــلُ والبـيــداءُ تـعــرفـني
والسيفُ والــرمــحُ والقــرطــاس والـقلم

كـم تــطلبــون لنــا عـيبــاً فـيعـجــزكم
وَيَــكْــرَهُ الله مــا تــأتــون والــكــرم

مــا أبعـدَ العيبَ والنقصــان عن شــرفي
أنــا الـثُّــريَّــا وذانِ الـشـيـبُ والــهــرمُ

فهذه النفس الطامحة الجامحة المتسامية إلى العظمة دعت الكثيرين من النقاد، القدامى والمحدثين، إلى اتخاذ مواقف متعددة، منها ما هو متفق مع نفس الشاعر المندفعة وراء العظمة التي لا تُنال، ومنها ما يتعارض مع تلك النفس ويتهمها بالجنون أو ينسب إليها ادعاء النبوة على الأقل.

وأما عن ملامح البداوة في شعره فإنها ظاهرة ماثلة لكل من حاول قراءة شعر المتنبي واستكناه معانيه. فهو دائماً شجاع:

صحبتُ في الـفلوات الــوحشَ مـنفــرداً
حـتـى تـعـجـب مـنـي الـكــور والأكــم

وهو كذلك لا يحتمي إلا بسيفه ولا يجني الفضل من سواه:

ومــرهــفٍ سِــرْتُ بيـن الجَـحْفَـلَين بــه
حتى ضَــرَبْتُ ومــوجُ المــوتِ يـلتــطم

وإذا نظرنا إلى قول المتنبي فيمن يهتم بجمع المال:

ومن ينفق الســاعـات في جمــع مـالــه
مخــافــة فقــر فــالــذي فعــل الفـقــر

ومن هذا القول نستطيع أن نستدرك أن سعي المتنبي وراء المال وعدم إسرافه فيه لم يكونا حباً بهذا المال ولا بخلاً من الرجل، ولسبب بسيط، فإن أبا الطيب، بعد أن اتصل بسيف الدولة ومن ثم بكافور الاخشيدي وعضد الدولة البويهي بعد ذلك، قد اغتنى ولم يعد بمقدوره أن يعيش الفقر الذي دعا أبو الطيب إلى تجنبه في قوله أعلاه، ولكنْ، على ما يبدو، من كلامه، أن نفسه قد صممت على القيام بأمر عظيم، ولكن القائمين على إدارة دفة البلاد قد منعوه من إبراز ما قد انطوت عليه نفسه من عظيم الأعمال وتفسير ذلك عندنا قوله:

يقــولـون لي: مــا أنت في كــل بلدةٍ؟
ومــا تبتغي؟ مــا أبتغي جــلّ أن يُسْمَى

وما هي بغية رجل نما على حب الثورة على الأوضاع المتردية التي كانت سائدة في أيامه؟

ألا يكون، وراء تعاليه، في نفسيته الطموحة الوثابة، قد خبأ أمراً لم يجرؤ على البوح به طيلة المدة التي عاشها؟ وقد رأى بأم عينه مصير المتمردين على الأوضاع الشاذة؟

ألا يكون تجميع المال، والتفاف الناس حوله في بغداد، وقبل ذهابه إلى فارس، من الأمور التي دعت إلى قتله ومن معه وسلبه ما قد أفنى من أجله عمره؟

ألا يكون، ما لم تسمح بتسميته الظروف السياسية والاجتماعية، مما يتبغيه، من الأمور الجسام التي لم تنضج بعد ولم تكتمل إمكانيات إبرازها للوجود؟

وأبناء الطبقة الوسطى الذين كانوا قد اجتمعوا حوله في بغداد، قد هجاه خصومه بسبب هذا الاجتماع وعَيَّروه بهم، لأن اجتماع هؤلاء الشباب حول المتنبي في نظر أعدائه قد قلل من قيمته، ولأن المحيطين بأعداء المتنبي من أبناء الطبقة العليا، وهذا في نظرهم من الأمور المهمة التي ترفع الرأس.

هذه النقطة بالذات تسلط الضوء على قضية هامة جداً إذ أن من شأنها أن تترك أثراً سلبياً، في مواقف أبناء الطبقة الاجتماعية الوسطى، وتؤثر فيهم نفسياً بشكل تدفعهم معه إلى التكتل حول رجل ملأ الدنيا وشغل الناس.

ولا شك أن التاريخ قد أغفل هذه النقطة بالذات ولم يشر مؤرخو المتنبي بأكثر من أن اجتماع أبناء الطبقة الوسطى

حول المتنبي قد وضع في أيدي الناقمين عليه، لترفعه عن مدحهم، مهمازاً يسيئون فيه إليه، ويتحاملون عليه، ويعيدون إلى الأذهان صورة الطعن في نسبه وادعائه النبوة؟

أفلا ترى أن موقف شعراء بغداد سلباً حول شخصية الرجل، ما كان إلا لإبعاد الناس عن الالتفاف حول شخصية المتنبي الفذة؟ وخصوصاً أن أبناء الطبقة الوسطى قد شعروا بالإهانة عندما عرّض بهم شعراء بغداد من ناحية، ولشعورهم أن هذا التعريض بهم والتحامل على صاحبهم بسببهم من ناحية ثانية، قد قوى في نفوسهم الشعور بالالتفاف حول الرجل ضد المتحاملين عليهم وعلى صاحبهم أبي الطيب؟

أفلا ترى بعد ذلك، أن تسليط الأضواء على سلبيات الإنسان، أمر مدروس وموجه يهدف إليه أصحاب الأغراض الخاصة لوضع الستائر أمام أهداف الإنسان العامل الطامح المبدع لطمس أغراضه ومراميه؟!

فاتهام المتنبي بالبخل وبالتالي قتله، لم يكونا عبثاً؛ ولو تأملنا شعر المتنبي نفسه لرأينا أكثر من جواب على تلك الإدعاءات والتهم التي وُجِّهَتْ إليه. فاسمعه يقول:

وكم مِنْ جبالٍ جُبْتُ تشهدُ أنني الـ
ـجبالُ وبحرٍ شاهدٍ أنني البحرُ

ألا ترى أن في هذا القول تأكيداً من الشاعر على شجاعته في استنطاق الجبال وعلى كرمه وسخائه في استشهاده البحر؟ وهل يصح بعد ذلك أن يُتَّهَمَ المتنبي بالبخل وادعاء النبوة؟

إذا كان أبو الطيب قد تأثر بظروف عصره، وعبّر عنها في أماكن مختلفة في شعره، فإنه قد تأثر كذلك بكل أنواع الثقافات التي اقتبسها من «كُتَّابٍ بالكوفة كان يدخله أولاد الأعيان من الكوفيين، فتعلم العربية لغة وإعراباً وشعراً ثم ارتحل إلى البادية حيث صاحب الأعراب... وأخذ عن شيوخهم كثيراً من أوابد اللغة وشواردها، ورجع إلى الكوفة بعد سنين شاعراً حاذقاً عالماً باللغة وأسرارها، وتنقل من بادية العراق إلى بادية الشام، ومن البدو إلى الحضر، ومن المدر إلى الوبر، متردداً بين القبائل»(١٢). كما لازم الورّاقين واستفاد الكثير مما يمتكلون من الكراريس(١٣) التي ينقل عنها في دفاتره ما يجده مناسباً لتأصيل ثقافته وتعميقها. وكأني بالمتنبي في هذا المجال يدرك إدراكاً واعياً أن من واجبه أن يحيط بثقافة عصره كاملة، كما عليه كذلك أن يُلم بتراثه الثري حتى يصبح متمكناً من الاستمرار في عملية الإبداع الفنية التي كانت قد نشأت على يد أوس بن حَجَر وامتدت

---

(١٢) الثعالبي. يتيمة الدهر. ج ١ ص ٧٩.

(١٣) المحاسني. م.س. ص ٥٧.

صُعْداً إلى زهير بن أبي سلمى وكعب بن زهير والحطيئة وجميل بن معمر ومسلم بن الوليد وأبي تمام الطائي؛ فهذه الإحاطة، بالتراث، مع قدرة المتنبي، بعبقريته الفذة، على العطاء، هي التي مكّنته من عملية التجاوز ليصير فيما بعد شاعر العرب الأول بعد أن كان، قبله، أبو تمام والبحتري قد احتلاّ تلك المكانة في القرن الثالث الهجري.

وأبو الطيب، في شعره، «إذا تعرض لنظم معنى من المعاني - التي لا صلة لها مباشرة بظرف القول، مما يمكن اعتباره التزام الشاعر لطبيعة فنه - تعمل له، وجرَّده من كل ملابساته تجريداً، واختزل له البيان كل الاختزال. «ففي قوله مثلاً

أمِنَ ازديارك في الدجى الرقباء
إذ حيث كنت من الظلام ضياء
قلق المليحة وهي مِسْكٌ هَتْكُها
ومسيرها في الليل وهي ذكاءُ

تراه إنما يصوغ نظماً ما يقرره المنطق. . . لحمةً وسداةً، ولا مساس لما يسوق كحجة - رغم قوتها الإقناعية - بالعاطفة الحية. فلو أنك أتيت بعبارته على وجهها البنائي لما كانت إلا:

١ ـ أمِنَ الرقباء ازديارك في الدجى، إذ (لا يكون إلا) ضياء حيث كنت من الظلام.

٢ ـ لأن. . . قلق المليحة (وهي مسك) ومسيرها في الليل (وهي ذكاء) هتك لها.

فهذا كل ما هنالك إذا تأملتَ رصفه، وليس كل هذا التقديم والتأخير في تركيب العبارة إلا اقتصاداً منه في الألفاظ، اختصاراً للطريق»[١٤] على أساس أن خير الكلام ما قل ودلّ.

وأما «إذا اقتضى ظرفه أن يعبر عن شيء يختلج في صدره لحينه، أرسل الكلام مرتجلاً ـ أو في حكم المرتجل ـ ملتبساً بشعوره الحي، كما في قوله:

لا تحسن الوفرةُ حتى ترى
منشورة الضفرين يوم القتال

على فتى معتقل صعدةً
يعلها من كل وافي السبال

فهنا لا تجد أي اقتصاد في الألفاظ. . اختصاراً للطريق، وإنما عاطفة متأججة يعبر عنها الصبي بإطلاق حرارتها في

(١٤) ابراهيم العُرَيِّض. فن المتنبي بعد ألف عام. دار العلم للملايين. بيروت. ص ٧٨.

الكلمات المؤاتية لها»[١٥]».

وعلى هذا الأساس تستطيع ان تلحظ أن نسج المتنبي، في قلائد شعره، قد سلك فيه طريقين: «أحدهما دائماً صارخ الألوان ملوناً بشتى عواطفه، والآخر لا لون له غير البياض لأنه ومض العقل المحض»[١٦].

وانطلاقاً من هذين الطريقين يمكن أن نلحظ أغراضه الشعرية التي تعبر تعبيراً صادقاً عن مكنونات نفسه القريبة والبعيدة من ناحية، ومن ناحية ثانية نستطيع أن نستشف ملامح الحياة العربية والاسلامية في القرن الرابع الهجري، ومن ناحية ثالثة يمكننا رصد عملية التطور الفني للقصيدة العربية والمستوى الإبداعي الذي توصلت إليه، من خلال عملية التجاوز التي جعلت المتنبي يتبوأ المركز الأعلى من بين شعراء العربية، لأنه كان قلب زمانه وعينه وعقله.

والنزعة الغنائية تعتبر أهم أغراضه الشعرية، حيث تراها متمثلة في طموحه وتوثبه، وسعيه الحثيث إلى العلى، وشجاعته وحبه للطعان والمغامرة. كما نرى هذه الغنائية، في غزله وفخره ورثائه.

---

(١٥) العريض. م.س. ص ٧٨.

(١٦) العريض. م.س. ص ٧٩.

وأما الغرض الثاني فهو نزعته الاجتماعية حيث نلحظ فيها ذمه للعبيد، وتعريضه بالحساد، وعتابه للزمان وبعض ممدوحيه، كما نلحظ مديحه وهجاءه.

وأما الغرض الثالث فهو نزعته السياسية التي تبرز عنده من خلال تعصبه للعرب الأفذاذ، والتنديد بأعدائهم من العجم.

والغرض الرابع عنده، والذي لا تكاد تخلو منه قصيدة أو قطعة، هو نزعته الوصفية التي تناول فيها وصف الطبيعة، بما عليها من إنسان وحيوان وجماد، إضافة إلى وصفه للأشياء غير المنظورة كالحمى وما تتركه على الجسم، وفي حنايا النفس، من مشاعر وانفعالات.

وأما الغرض الخامس، عند أبي الطيب، فهو نزعته الحكمية، إذ نجدها مبثوثة في معظم قصائده ومقاطعه يقصد إليها كلما دعته نفسه إلى التأمل والاستبصار، فيورد لذلك حكمة أو يضرب مثلاً سياراً خالداً على الزمن يستخدمه الإنسان كلما دعت إليه الضرورة.

فن القصيدة عند المتنبي

إذا عدنا بالنظر إلى ما قبل عصر المتنبي ـ إلى القرن الثالث الهجري مثلاً ـ لرأينا أن الشعراء فيه قد نحوا منحيين اثنين، المنحى الأول وسلك فيه أصحابه مسلكاً صعباً شائكاً إذ انصرفوا إلى الإيغال وراء المعاني العميقة التي تتطلب منا إعمال العقل والروية من ناحية، كما انصرفوا إلى الانكباب على الصناعة البلاغية في عملية الأداء الفني حيث أكثروا من الصور البيانية والبديعية من ناحية ثانية الأمر الذي يدعو القرّاء والمهتمين بالشعر عموماً إلى استخدام الروية وكد الذهن في فهم ما ينظم وما ينثر(١٧). وعلى رأس هذه المجموعة من الشعراء كان أبو تمام. والمنحى الثاني وقد سلك فيه أصحابه مسلكاً مغايراً للأسلوب الأول إذ انصرفوا إلى اعتماد السهولة والبساطة فيما نظموه من شعر حتى أتى ما تركوه لنا من تراثهم الأدبي مرسلاً سلساً ليس فيه ما يدعو إلى شحذ العقل وإجهاد النفس بل نراه أكثر إطراباً وإيناساً

---

(١٧) إذا كان أبو تمام قد سلك هذا المسلك فذلك يعود إلى أن طبيعة العصر قد دفعت إلى الاهتمام بالصناعة اللفظية التي من شأنها أن تحيط بالتعبير عن معطيات العصر.

لاهتمام أصحاب هذا المنحى بعملية الإيقاع التي تجعل الشاعر يستحوذ على أحاسيس الناس من خلال السيطرة على أسماعهم، وكان البحتري على رأس أصحاب هذا الاتجاه[١٨].

ففي الأسلوب الأول، عند أبي تمام واضرابه، تكلف وصناعة كما ترى في قوله:

خدم العُلى وخدمْنَه وهي التي
لا تخدمُ الأقوامَ ما لمْ تُخْدَم

وفي الأسلوب الثاني، عند البحتري وأضرابه، رقة وسلاسة وسلامة طبع وفطرة كما ترى في قوله (البحتري):

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً
من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وقد نبه النوروز في غلس الدجى
تمائم ورد كن بالأمس نُوَّما

«أما المتنبي فإنه تحاشى - منذ أول لحظة - ما تجرّه الطريقتان من عقابيل الصنعة. فقد كان له هدف من وراء ما

(١٨) وعندما سئل البحتري عن رأيه في شعره وفي شعر أبي تمام قال: هو (أبو تمام) أغوص على المعاني، وأنا أقْوَم بعمود الشعر. العريض. م.س. ص ١١٠.

التزم به لطبيعة الفن الشعري ـ ممثّلاً فيه ـ هو أكبر من مجرد تحبيــك الكلام . . . سبــائـك ، كـأبي تمـام ، أو لحـونـاً كالبحتري . . . حتى ولا إرضاء للممدوحين . فعاد بالشعر إلى الطريقة المثلى عنـد بني قومـه ، ولكنه أسبـغ على تلك الطريقة ـ المعبدة منذ القدم ـ خير ما في المدرستين من الصفات»[١٩] .

وإذا تأملنا شعر المتنبي ، فمقياس الفن الشعري عنده هو وحدة البيت المشدودة العـرى بوحـدة الموضـوع وصفاء المعاني فيه (في البيت) بشكـل خاص ، ثم تـرابط هذه المعاني في القصيدة الواحدة بشكل عام .

وأمـا الجـرس المـوسيقي الإيقـاعي فلم يكن المتنبـي كلفاً به . ولم يكن ، هذا الجانب غرضاً يسعى إليه لذاته ، كما هي الحال عند البحتري بقدر ما كان همه إبراز المعنى السامي النبيل من خلال وحدة الأبيات وتناميها وانسجامها في القصيدة الواحدة ، «دون أن يفقد البيت الفرد ركيزته»[٢٠] من خلال وحدة المـوضوع الـذي يتحرك في ذات المتنبي . وبذلك ، استطاع المتنبي ـ على حد قول إبراهيم العُرَيِّض ـ أن يجمع بين تحقيق معنى الوحدة تركيزاً في البيت المفرد ،

---

(١٩) العريض . م . س . ص ١١٢ .

(٢٠) العريض . م . س . ص ١١٢ .

وتحقيق معنى سياقها بنائياً في القصيدة كلها بحيث لا يندّ فيها بيت عن بيت ومن هنا استحال أن تقدم وتؤخر في أبياته لهذا التلاحم الحديدي في معانيها»[٢١].

ولقد عاب الكثيرون من النقاد القدامى والمحدثين على المتنبي طريقته في شعره، ومن أوائل هؤلاء سيف الدولة علي ابن حمدان نفسه ـ وكان أديباً وشاعراً ـ إذ قال لأبي الطيب لقد انتقدتهما عليك، يعني قوله:

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقف
كأنك في جفن الردى وهو نائمُ
تمر بك الأبطالُ كلْمى هزيمةً
ووجهُك وضّاحٌ وثغرُك باسم

كما انتقد على امرىء القيس قوله (الكلام لسيف الدولة):

كأني لم أركب جواداً للذة
ولم أتبطّنْ كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزقَّ الرويَّ ولم أقُلْ
لخيلي: كرِّي كرّة بعد إجفال

فبيتاك لم يلتئم شطراهما كما لم يلتئم شطرا بيتي امرىء القيس، وكان ينبغي له أن يقول:

(٢١) العريض. م.س. ص ١١٣.

كـأنـي لـم أركـب جـواداً ولـم أقـل
لـخيـلي: كـري كـرة بـعـد إجـفـال
ولـم أسـبـأ الـزق الـروي لـلـذة
ولـم أتبـطن كـاعبـاً بـعـد إجـفـال

وكذلك كان ينبغي أن تقول:

وقفت ومـا في المـوت شـك لـواقف
ووجـهـك وضّـاحٌ وثـغـرك بـاسـم
تمـر بـك الأبـطال كلمى هـزيمـة
كـأنـك في جفـن الـردى وهـو نـائم

فقال المتنبي: إن صح أن الذي استدرك على امرىء القيس هذا، هو أعلم بالشعر منه، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا. ومولانا يعلم أن الثوب يعلمه البزاز كما يعرفه الحائك فإن البزاز يعلم جملته والحائك يعرف تفاصيله. وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد، والشجاعة في منازلة الأعداء بالسماحة في شراء الخمر للأضياف. وأنا كذلك لما ذكرت الموت في صدر البيت الأول أتبعته بذكر الردى في آخره، ليكون أحسن تلاؤماً، ولما كان وجه الجريح المنهزم عبوساً وعينه باكية قلتُ: «ووجهك وضاح وثغرك باسم» لأجمع بين الأضداد في المعنى.

فأعجب سيف الدولة بقوله ووصله بخمسين ديناراً من دنانير الصِّلات».

لم نذكر هذه القصة إلا لنؤكد أن المتنبي كان على دراية تامة بفن الشعر وأصول الكلام، كما كان على دراية تامة بما توصل إليه العرب من أنواع العلوم المختلفة - بما فيها الشعر - وكما كان أيضاً على دراية واعية بالأساليب التي كانت معتمدة، إلى أيامه، وخصوصاً، أنه قد عُثِرَ فيما وجدوه معه بعد قتله على دواوين الكثير من الشعراء وخصوصاً ديواني الطائيين (أبي تمام والبحتري وابن الرومي).

ومن أجل ذلك ليس بعيداً على المتنبي أن يبذ الذين سبقوه، بعد أن استلهم طرائقهم، ويعمل على توليد المعاني. وعلى هذا الأساس جاء قول ابن جني: «فأما اختراعه للمعاني وتغلغله فيها واستيفاؤه لها، فمما لا يدفعه إلا ضدّ، ولا يَسْتَحْسِنُ معاندتَه إلا ندّ»[٢٢].

كما أنه قد خرج بالشعر عن أساليب العرب التقليدية، فهو إمام الطريقة الابتداعية في الشعر العربي[٢٣].

---

(٢٢) ابن جني. شرح ديوان المتنبي، الفسر: ج ١ ص ٢١.
(٢٣) محمد مندور. النقد المنهجي عند العرب. دار نهضة مصر، القاهرة.

وأما ما يمكن اعتماده في تأكيد رصد الطريقة المتنبئية فهو أولاً القصيدة التي رثى بها جدته التي جاءها كتابه فماتت وهي تقبله بعد أن قتلتها الفرحة فرثاها قائلاً:

ألا لا أُري الأحداثَ مدحاً ولا ذمّاً
فما بطشها جهلاً، ولا كفُّها حلما[1]

إلى مثل ما كان الفتى مرجعُ الفتى
يعود كما أُبدي، ويُكرى كما أرمى[2]

إن المتنبي بهذين البيتين يحاول أن يعمل عقله وهو يتمالك نفسه للسيطرة على عواطفه مذكراً أن الإنسان لا بد له من أن يعود إلى النقطة التي انطلق منها... يكبر وينمو ثم لا يلبث أن يتضاءل ويتلاشى وذلك على سبيل الاعتبار لأن الدهر هذه طبيعته وما على الإنسان إلا أن يعتبر أثناء عملية الخسارة في تراجعه إلى نقطة البدء، ولكن الإنسان مهما تجلد أمام المصيبة فإن الحزن لا بد وأن يهز كيانه ويحرك أشجانه، ويندفع الشاعر وراء عواطفه وأحاسيسه قائلاً:

لك الله من مفجوعةٍ بحبيبها
قتيلةِ شوقٍ، غيرِ ملحقها وصما[3]

(١) الأحداث: مصائب الدهر.
(٢) الإبداء: الخلق.
(٣) الوصم: العيب.

أَحِنُّ إلى الكأس التي شَرِبَتْ بها
وأهوى لمثواها الترابَ وما ضما[1]

بكيت عليها خيفة في حياتها
وذاق كلانا ثكل صاحبه قدما[2]

ألا ترى أن الحزن يغلف فؤاد المتنبي فيغمره لوعة وأسى إذ أن جدته لم تمت إلا شوقاً إليه وحباً بلقائه؟ فبكاها ما يحلو له البكاء، وكيف لا يبكي المتنبي جدته وقد عاشا سوياً وكل منهما قد ثكل، بسبب الفراق، صاحبه وهو حي، فكيف لا يبكي، وجدته، والدهر قد فرق بين المحبين حتى أحس كل منهما أنه قد فقد صاحبه لشدة وقع هذا الفراق.

ونلاحظ هنا أن المتنبي قد اعتمد إعمال العقل في عملية التبرير والتعليل ثم لا يلبث أن ينساق وراء عواطفه متأثراً بهول الفاجعة. واسمعه في هذا البيت، وهو يتذكر جدته، وقد خلفت وراءها بلدها الطيب الذي بكاها أهله وفاء لشمائلها وبراً بطيب أرومته فكان من قتلاها.

ولو قتل الهجرُ المحبين كلهُّم
مضى بلدٌ باقٍ أجدَّت له صَرْمَا

---

(١) المثوى: القبر.

(٢) الثكل: الفقد.

فالمتنبي بهذا البيت كما في معظم شعره يلون قصائده بهذا النسيج العاطفي ـ العقلاني إذ أنه لا يعتب على الأيام لأنه أدرى بما تنطوي عليه حتى إذا ألمت به النازلة فلن تزيد على معارفه شيئاً:

عـرفتُ الليـالي، قبـل ما صنعت بنـا
فلمـا دعتنـا لم تـزدني بهـا علمـا

لأن الغدر من ظلم الأيام وطبيعتها.

ثم لا يلبث أن تأخذ به لوعة التذكر وألم الهجر حيث يستدرك دور الكتاب الذي أرسله لجدته «بعد فراق دام أربع عشرة سنة من سنة ٣١٧هـ إلى سنة ٣٣٠م، لم يرها خلالها أبداً:

أتـاهـا كتـابي بعـد يـأس وتـرحـة
فمـاتت سـروراً بي، فمُتُّ بهـا غـمّـا

حـرام عـلى قـلبي السـرور فـإنـني
أعـد الـذي مـاتت بـه ـ بعـدهـا ـ سمـا

على الرغم من سيطرة المتنبي على زمام نفسه فإن عاطفته تجاه جدته لا تلبث أن تعودلتضفي على شعره ستاراً من الحزن الشديد

دلالة على عمق ارتباطه الوجداني بتلك المرأة الطاهرة إذ يحاول أن يترسم حركاتها وهي تستلم كتابه بلهفة المشتاق:

تـعجَّـبُ من خـطـي ولفـظي كـأنـهـا
تـرى بحـروف السـطر أغـربـةً عصمـا
وتـلـثـمـه حـتـى أصـار مـداده
محـاجرَ عينيهـا، وأنيـابهـا سُحْمـا[1]

ألا ترى أن هذه الصورة المادية لتلك الجدة، وهي تلثم رسالة حفيدها بلهفة عظيمة، تحمل وراءها اسمى معاني الشوق نحو من تحب إلى حد أنه أنساها ما يمكن أن يتركه أثر الحبر على محاجر عينيها التي تذرف الدمع مدراراً لتذيب ذلك الحبر الذي كتب به تلك الرسالة؟ ألا تلمح تعجبها وهي تمسك بالرسالة لتمرغ بها وجهها بعد أن اشبعتها تقبيلاً وشماً؟

إنها لصورة رائعة فعلاً لو تقصَّاها فنان حاذق ماهر لَوَضَعَ أمام أعيننا لوحة خالدة رائعة وهي تظهر كل معاني الشوق والحب والحنين. ولكن كيف تكون حال تلك الجدة إذ انقطع دمعها وجفت جفونها إذ كانت تجد بهذا الدمع خير معين لها في وحدتها:

---

(١) السُحْم: جمع اسحم وهو الأسْود.

رقا دمعها الجاري وجفت جفونها
وفارق حبي قلبها، بعدما أدما[1]
ولم يُسلِهَا إلا المنايا وإنما
أشدُّ من السُّقم الذي أَذْهَبَ السُّقْما[2]

فماتت ولشد ما كان وقع الموت على المتنبي عظيماً وهل يعقل أن يتداوى شارب الخمر بالخمر؟ ويتداوى من السقم بالسقم؟ وهل هناك أعظم من السقم؟ الموت؟!! الموت أذهب سقمها (الجدة) وفجع المتنبي بمن يحب ويُقدِّر.

فالمتنبي بموتها على عداء مع الموت الذي لا يمكن أن تنال منه فما العمل يا ترى؟ ولكنه قبل هذا الموت كان يتمنى لها السعادة الدائمة أما الآن فماذا يطلب، يا ترى، فأصبح كالثكالى يستسقي الماء لقبرها بعد أن كان يخوض غمرات الحروب ومعمعمات الوغى:

طلبت لها حظاً ففاتت وفاتني
وقد رضيت بي، لو رضيت بها قسما
فأصبحت استسقي الغمام لقبرها
وقد كنت أستسقي الوغى والقنا الصُّمَّا

(١) رقا: انقطع.
(٢) يسلها: ينسها. المنايا: جمع المنية وهي الموت.

وكنت قبيل الموت استعظم النوى

فقد صارت الصغرى التي كانت العظمى

ولقد كان وقع النوى (الهجر، الفراق) عظيماً على قلب المتنبي ولكنه بوجود الموت قُلِب الأمر وتغيرت المفاهيم وعاد الحكم للعقل في تحديد المواقف، فيحس أبو الطيب بعظم الخطب الجلل ويرى أنه قد عجز أمام جبروت القضاء:

هبيني أخذت الثأر فيك من العدى

فكيف بأخذ الثأر فيك من الحُمَّى

وما انسدت الدنيا علي لضيقها

ولكن طَرْفاً لا أراك به أعمى

فواأسفاً ألّا أُكِبَّ مُقَبِّلاً

لرأسِك والصدر اللَّذَيْ مُلِئا حَزْما

وألّا أُلاقي روحك الطيبَ الذي

كأنّ ذكي المسك كان له جسما

إلى أن يدفعه الاعتزاز بها إلى القول:

ولو لم تكوني بنت أكرم والد

لكان أباك الضخمَ كونُك لي أُمَّا

وهنا، في هذا القول نرى تحوُّلاً ملحوظاً من المتنبي إذ التفت إلى الشامتين الذين يتربصون ويتحينون الفرص لإظهار

الشماتة والطعن عليه، وينصرف بكل قواه العقلية إلى الانتباه لأمورهم والوقوف في وجوههم إذا ما كانت نفوسهم قد سَوَّلت لهم أن يشمتوا بما أصابه في موت جدته حيث أنهم يجدون في ذلك لذة ومتعة. فما عليه بعد ذلك إلا أن يتأهب استعداداً للمجابهة وهو لا يعتمد في ذلك على غير خالقه في إنزال حكمه على الخلق ولا يقبل غيره:

لئن لـذّ يـوم الشـامتين بيـومهـا
لقـد ولـدت مني لأنفـسهـم رَغْمَـا

تَغَـرَّبَ لا مستعظماً غيـرَ نفسـه
ولا قـابـلاً إلا لـخـالِقِـهِ حُـكْـمَـا

ولا سـالِكـاً إلا فـؤادَ عـجـاجـةٍ
ولا واجِـداً إلّا لـمكْـرُمَـةٍ طعمـاً[1]

يقـولـون لي مـا أنت في كـل بـلدة
ومـا تبتغي؟ مـا أبتغي جَـلّ أن يُسْمَى

كـأن بـنيـهم عـالـمون بـأنـني
جـلوبٌ إليـهم من معـادنـه اليُتْـمَـا

ومـا الجمـع بين الماء والنـار في يـدي
بأصعبَ من أن أجمعَ الجدَّ والفهما

(١) العجاجة: الغبار وهنا يريد غبار الحرب.

وأما تساؤل الناس، والحساد، عما يمكن للمتنبي أن يصنع، في حْلِّه وترحاله، في كل بلدة، غير تضريب أعناق الملوك حتى يترك أصابع اليدين تتناوب في منع ذلك الصخب، من التساؤل، من الوصول إلى المسامع، وبالتالي إلى الأفهام، لما يحمله من الجلبة كأن يقول في غير هذه القصيدة:

تمرسْتُ بالآفات حتى تركتُها
تقولُ: أماتَ الموتُ أم ذُعِرَ الذُّعْرُ

وأقدمتُ إقدامَ الأتيِّ كأن لي
سوى مُهجتي أو كان لي عندها وِتْرُ[1]

ولا تحسبنَّ المجدَ زقاً وقينة
فما المجد إلّا السيف والفتكة البكر

وتضريبُ أعناقِ الملوك وأن تُرَى
لك الهبواتُ السودُ والعسكر المجرُ[2]

وتركك في الدنيا دوياً كأنما
تَدَاوَلَ سمعَ المرء أنملُهُ العشرُ

والمتنبي في ذلك التساؤل، ما أنت في كل بلدة؟ وما تبتغي؟ ما أبتغي؟! جل أن يُسمى! ألا ترى أن جواب المتنبي

(١) الأتيّ: السيل. الوِتر: الثأر.

(٢) الهبوات: الغبرات. المجر: الكثير.

عما يبتغي قد بان بوضوح في البيت التالي حيث أن أبناء الملوك يشعرون أن اليتم بانتظارهم بسبب ما سينزله المتنبي بآبائهم وهو يخوض ضدهم أعنف المعارك وأعتاها لما يعيثونه من الفساد وينشرونه من الظلم، في طول البلاد وعرضها. ولكن هذا الأمر الذي يطمح إليه أبو الطيب صعب جداً، وهو ليس بهذه البساطة، وقد أعد له سيفاً ماضياً وعزيمة أمضى من السيف حيث يقول:

ولكنني مستنصر بذبابه
ومرتكب في كل حال به الغَشْمَا[1]

وجاعِلُهُ يوم اللقاء تحيتي
وإلّا فلستُ السيدَ البطلَ القَرْما[2]

وإذا لم يكن المتنبي مغامراً وطامحاً في سبيل المجد والعلى فلا يمكن أن يكون سيداً وبطلاً وقِرماً في آن معاً وخصوصاً أنه من قوم شمِّ الأنوف كما في قوله:

وإنّي لَمِن قوم كأن نُفُوسَهُم
بها أَنَفٌ أن تسكن اللحم والعظما[3]

(١) الغَشْم: الإندفاع بدون تردد أو تراجع، ورجل مِغْشَم الذي يركب هواه ولا يتراجع عنه.
ذباب السيف: حده.

(٢) القرما: السيد.

(٣) الأَنَفُ: الإستكبار والتعالي والإستنكاف.

فهذه هي نفس المتنبي طماحة جموحة متعالية مغامرة أنوفة تأبى الضيم ولا ترضى بالظلم فهي لهذا تدفع بصاحبها الذي تتمثل فيه كل صفات الرجولة الحقة التي تسعى إلى إثبات المثال في كل أمر: في الرجولة والشجاعة والكرم ومساعدة المظلوم ولا يهمها في كل ذلك لوم اللائمين وكيد الحاسدين وفجور الظالمين، وما على الدنيا، بعد ذلك، إلا أن تعرف بأن هذه المفاهيم الإيجابيه مجتمعة، تمثل شخصية المتنبي خير تمثيل، ولتفعل الدنيا، بما عليها من الشرور والآثام، ما تفعل ما دام المتنبي يطلب من نفسه الأبية أن تزداد بها كرهاً، متمنياً من تلك النفس السامية أن لا تقبل الظلم وتبقى صامدة أمام صروف الدهر:

كذا أنا يا دنيا إذا شئت فاذهبي
ويا نفس زيدي في كرائهها قُدْمَا
فلا عَبَرَتْ بي ساعةٌ لا تُعِزُّني
ولا صَحِبَتْني مهجةٌ تقبل الظلما

بعد أن استعرضنا هذه القصيدة، بكامل جزئياتها، رأينا أن نفس المتنبي تمور فيها وهي تنبض بشتى ألوان التحرك الوجداني الحي الذي تعتمل في داخله كلُ معاني الحياة. فمن كلفه بالحب تجاه جدته ووفائه لتضحياتها، إلى تحديه للدهر وصروفه التي لا يمكن أن تثبت على حال في تعاملها

مع أصحاب النفـوس الطامحـة إلى المجد والعلى، إلى تعريضه بالشامتين، إلى فخره بنفسه واعتـداده بمآثـرها، وكذلك إلى تحديه للملوك والحكام وهو يهددهم بجلب اليتم لأبنائهم، إلى تركه في الدنيا دوياً جعل الناس يسائلونه عن ماهيته ومبتغاه، وأخيراً إلى نفسه التي من حقها أن تكون منسجمة مع همة صاحبها القعساء التي تتوق إلى العيش في الأجواء النقية الصافية ولو أغضب ذلك الدنيا التي من طبيعتها أن تكيد للعباقرة الأفذاذ، وأما إذا لم ترض الدنيا بشخصية المتنبي فما عليها إلا أن ترحل لأن تلك الشخصية ثابتة المواقف راسخة كالجبال.

أما بناء هذه القصيدة فهو متنوع بتنوع الأغراض التي عرضت له خلال سياق القصيدة.

فإذا أعدتَ النظر ممعناً في تراكيبها لرأيت أن أسلوب المتنبي فيها، وهو كما في غيرها من القصائد، ينطلق فيه من منحيين اثنين. وتفسير ذلك أن المتنبي إذا كان يهمه أمر المعنى العقلي فإنما يُعْمِلُ فيه العقل والروية ويدخل شعره فيه الكثير من التقديم والتأخير وتظهر في طيَاته كل ألوان الصناعة اللفظية والمعنوية دون أن يولي في ذلك أي اهتمام إلى عملية الوزن والإيقاع، وأما إذا كان يهمه أمر التعبير عن أحـاسيسه ومكنـونات نفسـه فإنـك تراه ينـدفع وراء تلك

الأحاسيس والانفعالات اندفاعاً عفوياً لا تكلف فيه ولا رواء، وأسلوبه في ذلك سهل ممتنع بحيث أنك لا تستطيع أن تسقط أو تبدل من البيت ولو لفظة واحدة، ومن القصيدة ولو بيتاً واحداً.

فمن المنحى الأول قوله:

تعجب من خطي ولفظي كأنها
ترى بحروف السطر أغربةً عصما

أو قوله:

وكنتُ قُبَيْلَ الموتِ أَسْتَعْظِمُ النَّوَى
فقدْ صارتِ الصُّغْرَى التي كانت العُظْمى

أو قوله كذلك:

وما الجمع بين الماء والنار في يدي
بأصعبَ من أن أجْمَعَ الجَدَّ والفَهْمَا

أو قوله:

ولم يُسْلِهَا إلا المنايا، وإنَّما
أشدّ من السُّقْم الذي يُذْهِبُ السقما

وأما في المنحى الثاني فاسمعه يقول:

أحن إلى الكأس التي شربت بها
وأهوى لمثواها الترابَ وما ضما

أو قوله:

وتـلـثـمــه حــتــى أصــار مــدادُه
محــاجــر عينيـهــا وأنيــابهــا سحـمــا

أو قوله:

رقــا دمعهــا الجــاري وجفت جفــونهــا
وفــارق حــبي قــلبـهــا بـعــدمــا أدمــى

وإذا تأملت الطابع العام في هذه القصيدة، في رثاء جدته، فهو من «هذا النوع الذي ينظمه الفنان خالصاً لنفسه، لا لعرضه للبيع في الأسواق[٢٤]» لأن صوغ الوجدان المحض الذي لا يبقى أثرُه محصوراً في نفس الفنان المبدع فحسب، بل يتجاوزه إلى نفوس الناس جميعاً لما فيه من رقة وعذوبة وصدق عاطفة وطلاوة وجرس مؤنس.

أما النموذج الثاني الذي يمكن اعتماده فهو القصيدة الأولى التي قالها بين يديْ سيف الدولة، وقد اشترط المتنبي فيها، على ابن حمدان، أنه إذا مدحه فلن يقبل الأرض بين يديه ولا ينشد شعره إلا وهو جالس، فنُسِب الجنون إلى أبي الطيب بسبب هذه الشروط[٢٥]، وكان ذلك سنة

---

(٢٤) العريض. م.س. ص ١١٩.

(٢٥) البديعي. الصبح المنبي عن حيثية المتنبي. دار المعارف. مصر.

٣٣٧هـ/٩٤٨م، حيث كان يجلس سيف الدولة تحت شراع من ديباج عليه صورة ملك الروم، وصور وحش وحيوان، وقد فاز أبو الحسن علي بن عبدالله بن حمدان العدوي بحصن برزويه وعاد إلى انطاكية[٢٦]، حيث نزل ضيفاً على أبي العشائر الحمداني والتقى عنده بالمتنبي وفرض عليه الأخيرُ شروطه التي قبلها سيف الدولة عن طيب خاطر لما توسم في المتنبي من علائم الذكاء والنبّاهة.

واستهلّ أبو الطيب هذه القصيدة، وهي الأولى في مدح سيف الدولة، بما يلي:

وفاؤُكُما كالرَّبْعِ أَشْجاهُ طاسِمُه
بأن تُسعِدا والدمعُ أشفاهُ سَاجِمُه[١]

وما أنا إلا عاشقٌ كلُّ عاشقٍ
أعقّ خليلَيْهِ الصَّفِيَّيْنِ لائمه

وقد يتزيّا بالهَوَى غيرُ أهلِهِ
ويستصحبُ الإنسانُ من لا يلائمه[٢]

بُليتُ بِلَى الأطلال إنْ لم أقفْ بها
وقوف شحيح ضاعَ في التُّرب خاتمه[٣]

(٢٦) الشيخ ناصيف اليازجي. العرف الطيب. ج ٢ ص ٥.
(١) طاسمه: دارسه. الساجم: المنسكب أو الساكب.
(٢) يتزيا: يظهر. يلائمه: يناسبه، يرضيه.
(٣) البلى: الغناء. الشحيح: البخيل.

كئيباً... تـوقَّـاني العَـوَاذِلُ في الهَــوَى
كمـــا يتـــوقِّي رَيِّضَ الخَـيْـــلِ حازِمــه[1]

ويحاول المتنبي في هذه الأبيات أن يعـود بنا، بالذاكرة إلى الوقوف على الأطلال، على طريقة الشعراء الجاهليين، وقد أثيرت أشجانه وانسكبت دموعه حزناً على هذا الربع الذي عفاه البلى وبُلِيَ المتنبي بسببه حتى توقَّاه في هواه اللائمون والعذَّال وتجنبوه كما يتجنب مُرَوِّضُ الخيل جواده الصعب ويخشى ركوبه.

ألا ترى أن عاطفة الحزن، التي كانت تراود المتنبي في صباه، قد برزت في هذه الأبيـات وخصوصـاً أن الذين اصطفاهم غير جديرين بصحبته لأنهم غير قادرين على إدراك ما تصبو إليه نفسه؟ ولكن الأمر الذي يزيد حياته تعقيداً، هو أنه مضطر إلى أن يصحب ويرافق مَنْ هو مِنْ غير طينته؟

فكيـف يرضى المتنبي أن يكُفَّه البلى ويغمره الفناء ما دام قد أخذ على نفسه كثـرة التأمل والاستبصار إذ شبه نفسه بذلك البخيل الذي يقضي الوقت الطويل في البحث عما أضاعه؟ فما الذي قد أضاعه أبو الطيب يـا تـرى حتى يتوجه ـ إلى نفسه ـ بالدعاء عليها؟

---

(١) توقى: تجنب. العواذل: اللائمون. ربض الخيـل: الصعب من الجياد.

أفلا نرى أن في عبارته «بليت بلى الأطلال» دعاءً على نفسه إذا لم يدأب جاهداً، غيرَ راض بما هو عليه، ومتوثباً إلى ما لم يَرْقَهُ إنسان على حد قول الشاعر:

فـإنـي وإن كـنـت الأخـيـر زمـانـه
لآت بـمـا لـم تـسـتـطـعـه الأوائـل

«وكيف أنه هو - بعد أن خيب صاحباه ظنه باللوم - يستعصي أمره على العذْل، وكلها معانٍ مما حام حولها الشعراء قبله ولكن لا بمثل هذا البيان»[٢٧].

ثم نرى أبا الطيب، بعد هذا المقطع، قد انتقل إلى الغزل قائلاً:

قِفِي تَغْـرَمِ الأولَى مِنَ اللحْظِ مُـهجَتي
بثـانيـةٍ، والمتـلفُ الشـيء غـارمُـه[١]
سَـقَـاكِ وحَـيَّـانـا بـكِ اللهُ إنـمـا
على العيس نَـوْرٌ والخُـدُورُ كَمَـائِمُـه[٢]
ومـا حاجـةُ الاظعانِ حـولَـكِ في الـدُّجَى
إلـى قَـمَـرٍ مـا واجـدٌ لـكِ عـادمه[٣]

(٢٧) العريض. م.س. ص ١٢١.
(١) غرم ما أتلفه: لزمه أداؤه.
(٢) العيس: الإبل. النَّوْر: الزهر. الكمائم: جمع كمامة وهي غلاف الزهر.
(٣) الأظعان: النساء في الهوادج. الدجى: الظلام.

إذا ظَفَرَتْ مِنْكَ العَيونُ بنظرةٍ
أثابَ بِهَا مُعْيِي المَطيِّ ورَازِمُه[1]
حبيبٌ... كأنَّ الحُسْنَ كان يحبّهُ
فآثَرَهُ أو جار في الحُسنِ قاسِمه
تحُولُ رِماحُ الخطِّ دون سِبَائِهِ
وتُسْبَى له مَن كلِّ حيٍّ كرائمُه
ويُضحِي غبارُ الخَيْلِ أدْنَى ستورِهِ
وآخرها نشرُ الكِبَاءِ المُلازِمُه

بعد أن وقف أبو الطيب على الأطلال وقوف المتأمل المستبصر، نراه يعمد إلى الغزل وهو «هنا يُنَوِّه ـ لأول مرة في الشعر العربي ـ بتأثير النظرة الأولى، نظرته إلى ذاك النَّوْر في الأكمام، وكيف كادت تقضي عليه ـ تلك النظرة ـ فما من سبيل لتلافي أثرها إلا بنظرة ثانية، وكيف أن فاتنته تقوم مقام البدر، لهذا الحسن القاهر الذي ما لها فيه ثان، فنظرتها هي غاية الثواب للمجهودين، ثم هي بين كرائم قومها، كإنسان العين، تُشرع دونها الرماح، وتتشرف بخدمتها السبايا، إلاّ أن الوصول إليها دونه أنفَةُ رجالها وما تثيره خيولهم من الغبار، ومن القُرب ما يفوح حول خبائها من دخان الطيب، وكذلك

(١) أثابه: عاد إليه. المعيي: الكليل. المطي: وسيلة الركوب. الرازم: المتعب.

فإن هذا النهج في التغزل بـ «ربيب ملك» كان بدعاً في الأدب لم يسبق إليه المتنبي»[٢٨]».

وبعد هذا المقطع الغزلي يعود، المتنبي، إلى تأكيد معرفته ودرايته بأمور الحياة قائلاً:

وما اسْتَغْرَبَتْ عيني فراقاً رأيته
ولا علّمتني غَيْرَ ما القلبُ عالِمُهُ

فلا يتهمني الكاشحون فإنني
رَعَيْتُ الرَّدَى حتّى حلت لي علاقمه[١]

مُشِبُّ الذي يبكي الشبابَ مَشِيبُهُ
فكيفَ تَوَقِّيهِ، وبانيه هادِمُهُ[٢]

وتكْمِلَةُ العيشِ الصِّبَا وعَقِيبُهُ
وغائبُ لون العارضَيْن وقَادِمه[٣]

وما خَضَبَ الناسُ البياضَ لأنه
قبيحٌ، ولكنْ أَحسنُ الشَّعْرِ فَاحِمُهُ

---

(٢٨) العريض. م.س. ص ١٢٢.

(١) الكاشحون: الذين يضمرون العداوة، الردى: الهلاك، العلاقم جمع العلقم والحنظل وهو نبات شديد المرارة.

(٢) التوقي: التجنب.

(٣) العارضان: جانبا الوجه.

لقد سبر المتنبي أغوار الحياة وفهم معانيها، وكرر هذا المعنى في أكثر من مجال، ولقد مررنا بمثل تأكيده لهذا الفهم عندما عرضنا لقصيدته في رثاء جدته حيث قال:

عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا
فلما دهتنا لم تزدني بها علما

ولنستمع إلى قوله كذلك:

رماني الدهرُ بالارزاء حتى
فؤادي في غشاءٍ من نبالِ
فصرتُ إذا أصابتني سهامٌ
تكسرتِ النصالُ على النصالِ

فتعمق المتنبي بصروف الدهر جعله يضرب صفحاً عن الاهتمام بأمور الدنيا القاسية حتى حلت مرارتها في فمه وأصبح حنظلها شراباً طيب المذاق، والسعادة لا يمكن أن ينعم بها الإنسان بهناء ما دامت تسير به الأيام من سَيِّء إلى أسوأ حتى يعود إلى النقطة التي انطلق منها أي «عوداً على بدء» على حد تعبير ابراهيم العُرَيِّض. ذلك أن الحياة لا تكتمل بالصبا وحده كمرحلة من مراحل العيش الرغيد وإنما اكتمالها بما سيعقبها عندما تبدأ علامات انحدار الإنسان على الجانب الآخر من هرم الحياة، فتزداد الهموم ويتعمق اليأس إذْ لا رجعة عن أيام المشيب.. لقد ولى الصبا.

ولو تتبعنا المتنبي في هذه القصيدة فنجده قد تخلص من وقفته على الأطلال وهو يضع نصب عينيه ما يتراءى له في البعيد، ثم ما صدر عنه من غزل رقيق بذكر الحبيبة التي كادت أن تقتله بالنظرة الأولى ولا حياة له إلا بالثانية، ثم تأكيد خبرته بأمور الحياة في تساؤلاته عما تفعله الأيام بالإنسان، إلى أن يلتفت إلى الخيمة التي نُصِبتْ لسيف الدولة، في انطاكية، وهو في زيارة لابن عمه أبي العشائر الحمداني حيث يقول:

وأحسنُ من ماء الشبيبَةِ كُلِّهِ
حَيَا بارِقٍ في فازةٍ أنا شائمه[1]

عليها رياضٌ لم تَحُكْهَا سَحَابةٌ
وأغصانُ دَوْحٍ لم تُغَنِّ حَمَائمه[2]

وفوق حواشي كلِّ ثوبٍ موجَّهٍ
من الدرِّ سِمْطٌ لم يثقِّبْهُ ناظمه[3]

ترى حيوانَ البَرِّ مضطجعاً به
يحارب ضِدٌّ ضِدَّه ويسالمه

---

(١) الفازة: المظلة. الحيا: المطر. البارق: السحاب ذو البرق.
الشائم: الناظر إلى البرق يرجو المطر.

(٢) الدوح: الشجر العظيم.

(٣) السمط: الخيط في القلادة وقد يراد به القلادة ذاتها.

إذا ضَرَبَتْه الريحُ ماج كأنه
تجولُ مذاكيهِ، وتدأى ضراغمه
وفي صورة الرُّوميِّ ذي التاجِ ذِلةٌ
لأَبْلَجَ لا تيجانَ إلّا عمائمُه
تُقَبِّلُ أفواهُ الملوكِ بِساطَهُ
ويكبُرُ عنها كُمُّهُ وبراجمه
قِيَاماً لمن يَشْفِي مِنَ الدَّاءِ كَيُّهُ
ومَنْ بَيْنَ أُذْنَيْ كُلِّ قَرْم مَوَاسِمُه
قبائعُها تحْتَ المرافق هيبة
وأنْفَذُ مما في الجفون عزائمُه

لقد أحسن المتنبي التخلص، من أطلاله وغزله وأمور حياته، إلى المديح حيث ربط بين المشيب وماء الشبيبة الذي يطفح به بِشْراً وإشراقاً وجْهُ الممدوح إذ أنه كالبارق الذي يحمل معه الخير والكرم والجود... فطمأن نفس الشاعر لنواله وعطاياه، وهو في تلك الخيمة المنصوبة، لأن ذلك متوقعٌ، من سيف الدولة، ومنتظر. ثم لا يلبث أبو الطيب أن يتابع في وصف تلك الفازة (الخيمة) وما رسم عليها من الأشكال الحلوة التي تعيد إلى أذهاننا دقة الوصف الرائعة رأيناها في شعر من سبقه، من شعراء لغة الضاد الفطاحل كامرىء القيس والأخطل وابن الرومي والبحتري، حيث يقول الأخير وهو

البحتري في سِينِيَّتِهِ المشهورة:

وإذ ما رأيتُ صورة انـ
ـطاكية ارتعتُ بين روم وفرس

من مليح يهوي بعامل رمح
ومُشِحٍّ مِنَ السنان بترس

يَغْتَلي فيهمُ ارْتِيابي حتّى
تَتَقرَّاهم يدايَ بلمسِ

كم كان المتنبي دقيقاً في وصف تلك الخيمة وما عليها من رسوم موحية لا ينقصها إلا أن تنطق أو تتحرك لدقة تجسيدها ووضوحها. وما كانت صورة الرومي، وهو راكع على تلك الفازة، إلا تأكيداً لقدرة سيف الدولة على إذلال الملوك، من غير العرب، وتقريراً لما كانت عليه مكانةُ سيف الدولة من العظمة والأبهة والسموّ في نظر الشاعر على الأقل وخصوصاً أن الملوك ليس من حقهم أن يقبلوا إلّا بساطه لا أنامله ولا حتى كُمَه. وما هذا الأمر في مدح سيف الدولة إلا زيادة في تعظيمه وانتقاصاً وتحقيراً من أمر خصومه.

وبعد هذه الأبيات، مع ما تحمله من صور حسية ودلالات معنوية، بفضل ما يضفيه على تعابيره من المحسنات اللفظية والبيانية، يدخل المتنبي في صميم المدح معتمداً، في ذلك، الأسلوب الذي يألفه الناس ويرتضونه مضيفاً إليه ما

يأسر أسماعهم وأفئدتهم وعقولهم في آن معاً كقوله:

لـه عَسْكَـرَا خَيْـلٍ وطيـرٍ إذا رمى
بهـا عسكـراً لم يَبْقَ إلاّ جَمَـاجِمـه
أجِـلَّتُـهـا مـن كـلِ طـاغ ثـيـابُـه
ومَـوْطِئُهـا مِنْ كـلِ بـاع مـلاغمـه[1]
فقـد قـلَّ ضـوءُ الصبـح ممـا تُغِيـره
ومـلّ سـوادُ الـليـل مـمـا تـزاحـمـه
ومـلّ الـقـنـا مـمـا تـدُقُّ صـدورَه
ومـل حـديـد الهـنْـد مما تـلاطـمـه
سـحـابٌ من الـعِقْبـان يـزحف تحتهـا
سحـابٌ إذا استَسْقَتْ سقتْها صـوارمـه[2]

أفلا ترى أن في هذه الأبيات إغراباً في وصف جيش سيف الدولة الذي لا يسير إلا ومعه سرب من الطيور الكاسرة حيث لا يبقيان من عسكر الأعداء إلا الجماجم بحيث أن الجنود يسقون العقبان من دماء الأعداء كلما طلبوا السقيا. وهل لنا أن نتذكر على ضوء هذه الصورة صورة النـابغة الذبياني في ممدوحيه إذ يقول:

---

(١) الأجلة: جمع جِلال وهو ما يوضع على ظهر الدابة والضمير للخيل. الملاغم: حول الفم.

(٢) الصوارم: السيوف.

إذا ما غزوا بالجيش حلّق فوقهم

عصائب طير تهتدي بعصائب

ولكن المتنبي أضرب عن مدح سيف الدولة والتفت إلى نفسه.

فقد كان قبل أن يتعرف إلى سيف الدولة يهيم على وجهه ولا يعرف إلى أين يسير:

سلكتُ صروفَ الدهر حتّى لقيتُهُ

على ظهر عزم مُؤْيدات قوائمه(١)

مهالك لم تصْحَب بها الذئبَ نفسُه

ولا حملت فيها الغراب قوادمه(٢)

فأبصرتُ بدراً لا يرى البدرُ مثلَه

وخاطبت بحراً لا يرى العِبْرَ عائِمُه(٣)

غضبتُ له لما رأيتُ صفاتِهِ

بلا واصفٍ والشعر تَهذِي طَماطِمه(٤)

وكنتُ إذا يَمَّمْتُ أرضاً بعيدة

سَرَيْتُ فكنتُ السرَّ والليل كاتِمه(٥)

---

(١) صروف الدهر: حوادثه. والمؤيد: القوي.

(٢) المفاوز: شعاب الطرق. قوادم الغراب: صدور جناحيه.

(٣) العِبر: العبور والاجتياز.

(٤) الطماطم: جمع طمطم، بالكسر: وهو الذي في لسانه عجمة.

(٥) سريت: سرت ليلاً. الهذي: الكلام الغير المعقول.

فإذا كان أبو الطيب قد أغرب جعل أسراب العقبان وعسكر سيف الدولة سحابتين تستسقي الأولى الثانية فتجيب مصغية ويكون عسكر العدو جماجم لا أكثر؛ وهنا في هذه الأبيات قد جرد لصروف الدهر طرقاً تسلكها العزائم المؤيدة بقوائم ولا غاية لها إلا النصر المحقق وذلك لِتَمَرُّسِهِ وشدة إمعانه في فهم دقائق تلك الحدثان ومجاريها وذلك لما في هذه الطرق ـ صروف الدهر ـ من مخاطر مهلكة تكاد تهابُها نفوس الذئاب وقوادم الغربان التي لا تعرف الخوف ولا يتسرب إلى طويتها الهلع. وفي هذا الجو المخيف من التحدي استطاع أبو الطيب أن يبصر الممدوح ـ سيف الدولة ـ بدراً لا مثيل له وبحراً لا يدانيه البحر في كرمه وعطائه إلى درجة لو حاول عائمٌ اجتياز هذا البحر وعبوره، لما استطاع أن يدرك غوره وأبعاده، وأبو الطيب مع هذا كيف لا يقصد سيف الدولة ويتخذ من الليل أميناً في مسراه على سره الدفين الذي يخشى عليه من الحساد وكيد الكائدين، وقد ثارت نفسه غضباً لأن أحداً من الشعراء قبله لم يوفِّ سيف الدولة حقه من المدح والتمجيد لانطواء نفسه على الكثير من صفات الإشراق والكرم وطَيِّبِ الشمائل.

ثم يمضي المتنبي في المتابعة بمدح الرجل قائلاً:

لقد سلَّ سيفَ الدولة المجدُ، مُعـ
ـلِماً فلا المجدُ مُخْفِيهِ ولا الضربُ ثالمه[1]

على عاتقِ الملك الأغرِّ نجادُه
وفي يد جبَّار السماواتِ قائمه[2]

تُحارِبُه الأعداءُ، وهي عبيدُه
وتدّخِرُ الأموالَ وهي غنائمه[3]

ويستكبرون الدهرَ، والدهرُ دونه
ويستعظمون الموتَ، والموتُ خادمه

وأنّ الذي سمّى عليّاً لمنصفٌ
وأن الذي سماه سيفاً لظالمه

وما كلُ سيف يقطعُ الهام حدُّه
وتقطع لَزْبَاتِ الزمان مكارمه[4]

فسيف الدولة، في هذه الأبيات سيفٌ للمجد فلا يستطيع الدهر بحدثانه أن يتجاهله أو يغلّ من عزمه ليبقى المجد مجداً محمي الذمار ويبقى السيف مشهوراً في وجوه الأعداء

---

(١) ثالمه: من بغله ويحدث فيه ثلماً. المُعْلِم: الذي يميز نفسه بعلامة في الحرب.

(٢) العاتق: أعلى الظهر. الأغر: الشريف. النجاد؛ خمالة السيف.

(٣) تدخر: توفر.

(٤) الهام: الرؤوس. اللزبات: الشدائد.

ومسلولاً في درء الباطل مناصرةً للحق ورفع لوائه. وأما مسؤولية حماية ذلك المجد فمرجعها إلى الله، ممثلاً بالخليفة الذي لقب سيف الدولة بهذا الاسم وسمى أخاه الأكبر بناصر الدولة لما قدّماه للخلافة من أيادٍ بيضاء في مقارعة أعداء الدولة وكان ذلك سنة ٣٣٠هـ. وأعداء الحق عبيده وأموالهم المدخرة غنائمه. فكيف يمكن أن يُستكبرَ الدهرُ وهو أقلّ شأناً منه أو يُسْتَعْظَم الموتُ وهو خادم له في مقارعة الأعداء.

ومع ما للسيف من الأهمية في مقارعة الظلم وحوادث الزمان، صوناً للمجد ودفاعاً عن كرامة الإنسان، فإن من سمى علياً بهذا الإسم لم ينصفه لأن عزيمته أمضى من السيف ذاته لأن سيفَ الدولةِ علياً قادرٌ على أن يقهر شدائد الزمان بقوة شكيمته وصدق إرادته وبعد نظره وانتشار مكارمه وعطاءاته على قاصديه ومعتفيه.

في هذه القصيدة، ابتسمت الحياة للمتنبي فانفرجت أساريره اغتباطاً برضى سيف الدولة عما قاله فيه الأمر الذي نكاد نتصور معه انتفاخ صدر أبي الطيب تكبراً وعنجهيةً واعتداداً، لما تحمله هذه القصيدة من معان قد بَذّ بها جميع الشعراء الذين أتوا قبله وقد مدحوا سيف الدولة نفسه فتجاوزهم المتنبي فناً وإبداعاً بفضل إحاطته الكاملة بتراث الأجداد من جهة ومن جهة ثانية بفضل قدرته الفذة على صقل

المعاني المتعددة الإتجاهات ودقة تجسيدها بشكل موحٍ يثير في النفس مفاعيل كثيرة من الإعجاب والتقدير والاحتذاء حتى أصبح العديد من شعراء عصره عيالاً عليه إذْ حاكوا شعره صوراً ومعانياً وفيهم يقول مخاطباً سيف الدولة:

أجـزنـي إذا أُنْشِـدْتَ شـعـراً وإنـمـا
بشـعـري أتـاك الـمـادحـون مُـرَدَّدَا
ودعْ كـل صـوت غيـرَ صـوتي فـإنني
أنـا الـطائـر المحْكيُّ والآخـرُ الصَّـدى

ولقد قال في شعراء عصره في مكان آخر:

إذا شـاء أن يـلهـو بلحيـة أحـمـق
أراهُ غـبـاري ثـم قـال لـه: الـحَـقِ

ولو تتبعنا شعر المتنبي في وجدانياته ـ رثاء جدته ـ وفي مدائحه ـ القصيدة الآنفة الذكر: وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه ـ عموماً، وفي شتى أنواع شعره وأغراضه، لرأينا أنه شاعر مجدد قد ضمّن شعره كل أنواع الثقافات التي كانت شائعة في أيامه الأمر الذي دفع العديد من النقاد إلى القول: إن شعر المتنبي صورة صادقة لطبيعة عصره. لأن نفس المتنبي التواقة قد اصطبغت بألوان تلك الصورة التي تتمثل باستبداد الإنسان وغروره وكرامته ونبله. «فتحت عنوان موقفه من

استبداد الإنسان يقع مثلاً ما قاله في الدول والملوك والحظ والسعادة، ومعاكسة الدهر وجور الزمان. وتحت عنوان موقفه من غرور الإنسان، يقع ما قاله في متعة الحسن، وطماعة الحب، وعرض الدنيا، وزيف الحضارة، والحسد والشماتة، وما يتحتم بعد كل زيادة من نقصان. وتحت عنوان موقفه من كرامة الإنسان، يقع ما قاله في كبر النفس والاعتداد بها، والهمم والهموم، والمجد والمال وصلابة الرأي وصدق الحس وروعة البيان. وتحت عنوان موقفه من نبل الإنسان يقع ما قاله في حسن البداوة، وعفة أهلها وإبائهم، وما يتحلّون به من صفات الكرم والشجاعة، والصبر والتضحية، والتفاني في الذود عن الحق وقوة الإيمان[٢٩]، ونظرة ممعنة إلى كامل الديوان كافية لإعطاء صورة واضحة ورأي دقيق عن عميق تطلعات المتنبي، وأبعاد مراميه.

أما أسلوب المتنبي فلقد حددنا أنه سلك فيه طريقين:

الطريق الأول أسلوبه في التعبير عن أحاسيسه وعواطفه ولقد بدا هذا الأسلوب جلياً واضحاً عندما يتحدث عن انفعالاته النفسية التي تضفي، على هذه النفس، التواقة المتألمة المتأملة، شتى الألوان الزاهية المشرقة التي تزيد النص الشعري دقة ووضوحاً وتأثيراً على القارئين والسامعين.

---

(٢٩) العريض. م.س. ص ١٢٣.

وإذا عرضت له خلال ذلك حكمة عقلية أو خاطرة فلسفية تجاوز تلك السلاسة واعتمد أشكالاً مختلفة من التعقيد كانت تمليها عليه ظروف تلك الخاطرة ويكون عنده هذا الأسلوب تعبيراً عن مقتضى الحال.

وأما الطريق الثاني، في أسلوب المتنبي، فهو ما حاول أن يجاري فيه طبيعة عصره مراعياً في ذلك المستويات التعبيرية التي توصلت إليها العبقرية العربية عبر مسيرتها الطويلة، في عمق تجربتها الشعورية وما خامر ذلك من التطور في الشكل والمضمون، امتداداً من العصر الجاهلي إلى آخر ما كان يدور في أيام أبي الطيب، مروراً بأبي نواس وابن الرومي وابن المعتز والبحتري وأبي تمام وانسجامه مع حركات العصر السياسية والاجتماعية والثقافية والإقتصادية. فأسلوبه بهذا الإطار كان يحتم عليه، حتى يكتب له السبق، أن يعمد إلى الإتيان بكل شيء جديد فلجأ إلى الابتكار في الصور والمعاني لأنه بهذا الأسلوب إنما يخاطب النـاس المميزين من أعيان الكلام بما فيهم الممدوحين، وعلى رأسهم سيف الدولة الذي كان أديباً وشاعراً وناقداً أدبياً. فلذلك رأى المتنبي أن يكون كلامه متجاوزاً لأفهام وإبداعات الأقدمين والمعاصرين فأبدع أبو الطيب ما شاء له أن يبدع وأجاد ما أمكنه من الجود حتى خلد شعره على الأيام، فملأ

بذلك الدنيا وشغل الناس. ولم يملأ المتنبي الدنيا، ماضياً وحاضراً ومستقبلا، إلا لأنه تصنع وأوغل في التصنع حتى غدا شعره، كما قلنا في غير هذا الموضع، يمّاً عميق الأغوار، متعدد الاتجاهات، يجد فيه الغواصون، مع الزمن، كل جديد، فلذلك بلغ عدد الكتب والدراسات التي وضعت حول ديوانه وشعره ما يزيد على الألفين. ولقد «كان لديه ـ المتنبي ـ من المهارة الفنية ما يستطيع أن يخفي به سمات هذا التصنع وما ينطوي عليه من تكلف شديد حتى ظن «اليازجي» ـ أحد شراح ديوانه ـ في الفصل البديع الذي عقب به على ديوانه، أن ما عند المتنبي من معجمات مستغلقة، إنما يقتصر على القسم الأول من شعره الذي نظمه في الحداثة. وهذا وهم من اليازجي ومن لف لفه، فقد استمرت هذه المستغلقات في شعره حتى الأنفاس الأخيرة من حياته، وغاية ما في الأمر أن مقدرة المتنبي على صوغ العبارة، ونمو هذه المقدرة على طول الزمن هو الذي يخفي على النقاد هذه الجوانب من التصنع»[٣٠].

ومن الأمثلة على تصنعه قوله:

ألا كلُّ ماشية الخَيْزَلَى
فِدَى كل ماشية الهَيْذَبَى

(٣٠) شوقي ضيف. الفن ومذاهبه في الشعر. مصر. ص ٣٤٢.

ألا ترى أنه يحشد هذه الألفاظ اللغوية حشداً حتى ينال إعجاب اللغويين من أصحاب الغريب؟ وفي ذلك يقول عنه الصاحب بن عباد «ومن أهم ما يتعاطاه التفاصح بالألفاظ النافرة والكلمات الشاذة، حتى كأنه وليد خباء وغَذِيٌّ لبن لم يطأ الحضر، ولم يعرف المدر»[٣١].

حتى انه ما كان المتنبي يصنع الشعر، على حد قول العكبري، إلاّ للفضلاء لذلك اهتم بالتأثير الشكلي على حد قوله:

قد كان يمنعني الحياء من البكا
فاليوم يمنعُهُ البكا أن يمنعا

نلاحظ هنا كيف يعتمد في طرافته على أن يغلف عباراته بأصباغ الفلسفة إذ يحقق لنفسه أوصاف قوالبها وتراكيبها. فالأسلوب الفلسفي عند المتنبي لم يستطع به أن ينفذ إلى لباب الصياغة الوجدانية بل بقي هنا يحوم حول قشرتها الخارجية.

وإضافة إلى استخدام الغريب في الحشد فإنه قد استخدم الغريب في الألفاظ من باب تحديه لأقطاب ذلك العصر من علماء اللغة كما في قوله:

---

(٣١) الثعالبي. يتيمة الدهر. ج ١ ص ١٣٤.

جَفَخَتْ وهم لا يجفخون بها بهم
شيم على الحَسَبِ الأعز دلائل

وكان بإمكانه أن يستخدم فخرت مكان جفخت.

ولم يغرب عن بال المتنبي أن يتصنع الأساليب الشاذة ليؤكد تفوقه بأساليب النحو، إذ كان به عالماً، كوفي المذهب كما تستشف من خلال تربيته في كتاب العلويين، في حين أن الناس عموماً قد ألِفُوا أساليب البصريين النحوية، ومن ذلك قوله وهو يرخم كلمة عُمَر الثلاثية الحروف:

أجِدَّك ما تنفكُّ عانٍ تفكُّه
عُمَ بنَ سليمان ومالاً تقسِّمُ

«وذهب الكوفيون إلى أنّ «أنْ» الخفيفة تعمل في الفعل المضارع النصب مع الحذف من غير بدل وذهب البصريون إلى أنها لا تعمل من غير بدل»[٣٢] وفي ذلك يقول المتنبي:

وتوقدت أنفاسُنا حتى لقد
أشفقتُ تحترقَ العواذِلُ بيننا

فنصب بذلك «تحترق» من غير أن.

أما في موسيقى الشعر، فلم يكن المتنبي، في أسلوبه، كلفاً بها ومعتمداً عليها. وإذا لم يكن الشاعر - أي شاعر - وكذلك الموسيقي كلفاً بانسجام الأصوات في

---

(٣٢) ابن الإنباري. الإنصاف. ص ٢٣٢.

توقيعاتها ونغماتها ورقة جرسها على الأذن فإنه، لا شك، سيحدث خللاً ظاهراً يسميه علماء الموسيقى نشازاً. وهذا النشاز من شأنه أن يوقع الاضطراب في تناغم الأصوات وتآلفها بحيث ترتاح إليها الأذن كلما أرادت تلك الأصوات، في انسجامها، رقة وإيناساً.

ولقد أحدث المتنبي في بعض شعره الكثير من النغمات الشاذة في مثل قوله:

وفاؤكما ـ كالرّبع أشجاه طاسمُه
بأن تُسْعِدَا والدمع أشفاه ساجمه

حيث قدم وأخر في مفردات النص فأحدث في البيت اضطراباً ملحوظاً. وكان الأولى في الشطر الأول أن يقول: «وفاؤكما أشجاه طاسمه كالربع». وكذلك قوله:

قلقِ المليحة ـ وهي مسك ـ هتكها
ومسيرها في الليل وهي ذكاء

وإذا تأملنا مواقع الكلام في الشطر الأوّل من الإعراب على الشكل التالي: مبتدأ، حال، خبر؛ وأما الشطر الثاني فنرى ترتيبه: مبتدأ، ظرف، حال، مع حذف الخبر للعلم به، أي أن مسيرها في الليل هتك لها.

وبعد ما مر بنا «فقد كان المتنبي شاعراً ماهراً، استطاع بمهارته، أن يخفي حقيقة فنه وصناعته عن كثير من

المستمعين والنظارة، وأعانه، في ذلك، أنه كان صاحب صوت ضخم لا يرتفع به حتى يحدث جلبة شديدة. وهذا نفسه ما ضلل النقاد قديماً وحديثاً في فهمه، فقد تابعوه في وصفه للأعرابيات وتشاؤمه وحكمه وتمجيده للبطولة العربية، وفخره وطموحه إلى المعالي، وترفعه عن الدنايا، ونسوا نسياناً تاماً أنه شاعر متصنع يحترف الصناعة في شعره للثقافات المختلفة، إذ يحاول أن ينقل إيماءة شيعية أو صوفية، وشارة فلسفية، أو منطقية، وشارة لغوية أو نحوية، وشاردة تركيبية أو موسيقية، وبذلك ـ كله ـ كان قطباً كبيراً في مذهب التصنع، بل لقد كان المفتاح الذي أخذت تتساقط منه نغمات هذا المذهب في قصائد الشعراء ونماذجهم»[٣٣].

لما جاء ابن جني في شرحه ديوان أبي الطيب إلى قوله في ممدوحه:

قد شرّف الله أرضاً أنت ساكنها

وشرّف الناس إذ سواك إنسانا

قال (ابن جني): لا يعجبني قوله سواك لأنه لا يليق بشرف ألفاظه. ولو قال: «انشاك» لكان أليق. قال العروضي ـ أحد شراح المتنبي ـ سبحان الله أتليق هذه اللفظة بشرف القرآن، ولا تليق بلفظ المتنبي؟ قال تعالى: ﴿الذي

(٣٣) شوقي ضيف. م.س. ص ٣٤٩.

خلق فسوى﴾، وقال: ﴿فسواك فعدلك﴾ وقال ابن فورجة «قرأت على أبي العلاء، ومنزلته في الشعر ما قد علمه من كان ذا أدب. فقلت له يوماً في كلمة: ما ضر أبا الطيب لو قال مكان هذه الكلمة كلمة أخرى أوردتها، فأبان لي عوارها. ثم قال: «لا تظن أنك تقدر على إبدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها، فجرِّبْ إن كنت مرتاباً، وها أنذا أجرب ذلك منذ زمن فلم أعثر بكلمة لو أبدلتها بأخرى كانت أليق بمكانها. وليجرب من لم يصدق يجد الأمر على ما أقول»[٣٤].

«إذا كان المكان ضيقاً على المتنبي والزمن هرساً، فإن له زماناً ومكاناً خاصَّيْن وهما طليقان واسعان بلا تخوم: ذلك أنه مسكون بهاجس وحيد: ببداية أعمق أصلاً، وبكارة أكثر عذرية»[٣٥].

---

(٣٤) أبو الطيب المتنبي: حياته وشعره. المكتبة الحديثة. بيروت. ص ١٥.

(٣٥) أدونيس. مقدمة للشعر العربي. دار العودة. بيروت. ص ٥٥.

آراء بعض القدامى والمحدثين
في شعر أبي الطيب وأخلاقه

قال ابن جني:

«ومن هنا تشبث قوم لا دراية لهم بعلم العربية بأشياء من ظاهر لفظه ـ الهاء تعود إلى المتنبي ـ إذ لم يكن لهم خبرة بدخيلة أمره، وحقاً أقول: لقد شاهدته على خلق قلما تكامل إلا لعالم موفق.

وأما اختراعه للمعاني وتغلغله فيها واستيفاؤه إياها فمما لا يدفعه إلّا ضدّ ولا يستحسن معاندته إلا ندّ، وما أحسبني رأيت أحداً غض من هذا الرجل وقتاً من الزمان إلا وشاهدته بعد ذلك قد رجع عنه وعاد إلى تفضيله... وما لهذا الرجل الفاضل عيب عند هؤلاء السقطة الجُهّال وذوي النذالة والسُّفال إلّا أنه متأخر محدث. وهل هذا ـ لو عقلوا ـ إلّا فضيلة له، ومنبهة عليه، لأنه جاء في زمان يعقم الخواطر، ويصدىء الأذهان، فلم يزل فيه وحده بلا مضاء يساميه ولا نظير يعاليه».

وقال الصاحب بن عباد:

«وكنت ذاكرت بعض من يتوسم بالأدب الأشعار وقائليها والمجوّدين فيها. فسألني عن المتنبي فقلت: إنه بعيد المرمى في شعره، كثير الإصابة في نظمه، إلا أنه ربما يأتي بالفقرة الغراء مشفوعة بالكلمة العوراء».

وقال أبو القاسم الأصفهاني في إيضاح المشكل من شعر المتنبي ـ كما رواه صاحب خزانة الأدب ـ:

«وأما الحكم عليه وعلى شعره: فهو سريع الهجوم على المعاني؛ ونعت الخيل والحرب من خصائصه، وما كان براد طبعه في شيء مما كان يسمح به. يقبل الساقط الرديء، كما يقبل النادر البديع».

وقال القاضي الجرجاني في وساطته:

«وأنا أرى لك إذا كنتَ متوخياً للعدل، مؤثراً للإنصاف أن تقسم شعره فتجعله في الصدر الأول تابعاً لأبي تمام وفيما بعده واسطة بينه وبين مسلم ـ بن الوليد ـ وأعلمناك أنه ليس بغيتنا الشهادة لأبي الطيب بالعصمة، ولا مرادنا أن نبرأه من مفارقة زلة. وإن غايتنا أن نلحقه بأهل طبقته، ولا نقصر به عن رتبته، وأن نجعله رجلاً من فحول الشعراء».

وقال أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر:

«وتكلم الأفاضل في الوساطة بينه وبين خصومه، والإفصاح عن أبكار كلامه وعونه، وتفرقوا فرقاً في مدحه والقدح فيه، والنضح عنه والتعصب له وعليه. وذلك أول دليل على وفور فضله وتقدم قدمه، وتفرده عن أهل زمانه بملك القواصي ورق المعاني، فالكامل من عدت سقطاته، والسعيد من أحصيت هفواته.

وقال الشريف الرضي:

أما أبو تمام، فخطيب منبر، وأما البحتري فواصف جؤذر وأما أبو الطيب فقائد عسكر.

أما أبو العلاء ـ المعري ـ فقد كان معجباً بأبي الطيب ولذلك شرح ديوانه، مرتين وسماه في إحداهما «اللامع العزبري» وفي الأخرى «معجز أحمد». وكان يتعصب للمتنبي ويزعم أنه أشعر المحدثين ويفضله على بشار ومن بعده كأبي نواس وأبي تمام».

وقال ابن شرف القيرواني في مقاماته:

وأما المتنبي فقد شغلت به الألسن، وسهرت في أشعاره الأعين، وكثر الناسخ لشعره، والآخذ لذكره، والغائص في بحره، والمفتش في قعره عن جمانه ودره. وقد

طال فيه الخلف وكثر عنه الكشف. وله شيعة تغلو في مدحه، وعليه خوارج تتعايا في جرحه، والذي أقول: إن له حسنات وسيئات، وحسناته أكثر عدداً وأقوى أمداً، وغرائبه طائرة، وأمثاله سائرة، وعلمه فسيح، وميزه صحيح، يروم ويقدر، ويدري ما يورد ويصدر...».

وقال ابن رشيق القيرواني في عمدته:

«ليس في المولدين أشهر اسماً من الحسن أبي نواس، ثم حبيب - أبي تمام - والبحتري. ويقال انهما أخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد... ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس».

وقال علي بن حمدان الواحدي:

إنه كان صاحب معان مخترعة بديعة، ولطائف أفكار لم يسبق إليها دقيقة، ولقد صدق من قال:

ما رأى الناس ثاني المتنبي
أي ثان يرى لبكر الزمان

هو في شعره نبي ولكن
ظهرت معجزاته في المعاني

آراء بعض المحدثين:

قال الدكتور عبد الوهاب عزام في «ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام»:

«لا مراء ان الرجل من كبار رجالنا، ولا ريب أنه أعظم شعرائنا على هفواته، وإن الشذوذ ليدل على قوة الحياة أحياناً وعلى الثقة بالنفس والاعتداد بالرأي».

قال الأستاذ كامل الكيلاني:

«لقد استفاد المتنبي من تجاربه في الحياة ما جعل شعره كأنه صوت القدر يملي على الناس قوانين الحياة».

وقال الدكتور زكي المحاسني في كتابه «المتنبي»:

«لقد احتل أبو الطيب المتنبي في أدب العرب مكانة رفيعة ارتقى إليها وتبجح فيها بقوة واقتدار، متعاظماً ومرغوباً فيه ولم يتح مثلها لغيره من شعراء العربية، وليس للحظّ دخل في ذلك، فإن حساب الحظ يسقط في القيم الأدبية الخالدة، وكفى برأي الجرجاني، قاضي الرأي، بل قاضي الأدب، أن تناول الشاعر بما هو أهل في كتابه «الوساطة».

وقال الأستاذ شفيق جبري في كتابه «مالىء الدنيا وشاغل الناس» في حديثه عن رثاء أخت سيف الدولة:

«لقد استنزل أبو الطيب جلالة وحيه من جلالة الميت فظهرت آثار العظمة على شعره».

وقال الدكتور صالح الأشتر في مقاله «لقاء بين الجاحظ والمتنبي»:

«وأما المتنبي قد وعى الفلسفة اليونانية وأثرها كبير في

حكمتــه، وقـد رد بعض المؤلفين أصــول الحكمـة في شعرالمتنبي إلى كلمات مشهورة لأرسطو».

وقال الدكتور شوقي ضيف:

«قد تركزت في نفس المتنبي خصائص العرب حتى لكأنما نفسه قطعة من جميع أنفسهم».

نماذج من شعر المتنبي

«عش عزيزاً أو مت وأنت كريم»

قال المتنبي هذه القصيدة في صباه وهي من البحرالخفيف

كَمْ قَتِيْلٍ كما قُتِلْتُ شَهِيْدِ
لبياضِ الطُّلَى وَوَرْدِ الخدودِ[1]

وَعُيون المها ولا كعيونٍ
فتكتْ بالمتَيَّمِ المعْمُودِ[2]

دَرَّ دَرُّ الصَّباءِ أيام تجريـ
ـر ذُيولي بدارِ أَثْلَةَ عُودي[3]

عَمْرَكَ اللهُ! هل رأيتَ بُدوراً
طَلَعَتْ في بَراقِعٍ وعُقودِ[4]

راجعاتٍ بأَسْهُمٍ رِيْشُها الهُدْ
بُ تَشُقُّ القلوبَ قَبْلَ الجلودِ[5]

---

(١) الطلى: جمع طلية وهي العنق.

(٢) المعمود: المضنى بالحب.

(٣) دَرّ دره: أي كثر خيره ودفق. دار أثلة: موضع بنواحي الكوفة.

(٤) عمرك الله: أي أطال عمرك.

(٥) الأسهم: كناية عن النظرات.

يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فمي رَشَفَاتٍ
هُنَّ فيه حَلاوةُ التّوحِيْدِ[1]
كُلُّ خُمْصَانَةٍ أرقُّ مِنَ الخمـ
ـرِ بقلبٍ أقسى مِنَ الجُلْمُودِ[2]
ذاتِ فَرْعٍ كأنما ضُرِبَ العنـ
ـبَرُ فيه بماءِ وَرْدٍ وَعُودِ[3]
حَالِكٍ كالغُدَافِ جَثْلٍ رَجُو
جيٍّ أثيثٍ جَعْدٍ بلا تَجْعِيْدِ[4]
تحملُ المِسْكَ عَنْ غوائرها الرّيـ
ـحُ وَتَفْتَرُّ عن شَنِيْبٍ بَرُودِ[5]
جَمَعَتْ بين جِسْمِ أحمدَ والسقـ
ـم وبَيْنَ الجفونِ والتَسْهِيْدِ[6]
هَذِهِ مُهْجَتي لَدَيْكِ لَحِيْني
فانْقُصي مِنْ عَذَابِها أو فَزِيدي

---

(١) التوحيد: نوع من تمر العراق.

(٢) الخمصانة: الحسناء الضامرة البطن.

(٣) ذات فرع: نعت للخمصانة، والفرع هو لشعر الرأس.

(٤) الغداف: الغراب. الجثل: الكثيف. الأثيث: الكثيف.

(٥) تفتر: تبتسم.

(٦) أحمد: اسم أبي الطيب.

كُــلُّ شَــيءٍ مِــنَ الــدمــاءِ حَــرَامٌ
شُــرْبُــهُ مــا خَــلاَ ابْنَــةَ الـعـنـقــودِ

فــاسْـقِنِـيْهــا فِــدى لـعـيـنيـكِ نـفـسـي
مِــنْ غَــزَالٍ وَطَــارفـي وتَــلِيــدِي[1]

شَــيْــبُ رأســي وذلــي ونــحــولــي
وَدُمــوعــي عــلى هَــوَاكَ شُــهُــودي

أيَّ يَــوْمٍ سَــرَرْتَــنــي بــوصــالٍ
لــم تَــرُعْــنــي ثَــلاَثَــةً بِــصُــدودِ

مــا مُــقــامــي بــأرضِ نــخــلــةَ إلَّا
كـمقــامِ الـمسـيـحِ بَـيْـنَ الـيـهــودِ[2]

مَــفْــرَشـي صَــهْــوَةُ الـحـصــانِ ولـكـ
ـنَّ قـمـيـصـي مـســرُودَةٌ مِـن حَــدِيْــدِ

لأْمَــةٌ فــاضَــةٌ أضــاةٌ دِلاصٌ
أحْــكَـمَــتْ نَــسْـجَـهــا يَــدا داوُدِ[3]

أيــنَ فَـضْــلي إذا قَـنِـعْــتُ مــن الــدّهــ
ـرِ بــعَـيْـشٍ مُــعَــجَّــلِ الــتّـنـكـيــدِ

---

(١) الطارف: المال المستحدث، التليد: المال القديم.

(٢) أرض نخلة: قرية لبني كلب عند بعلبك، إشارة إلى عداوة أبناء القرية له.

(٣) اللأمة: الدرع. الفاضة: الواسعة، دلاص: لينة ملساء.

ضَاقَ صَدْري وطَالَ في طلبِ الرز
ق قيامي وقلَّ عنهُ قُعودي
أبداً أقطعُ البلادَ ونجْمي
في نُحُوسٍ وهِمّتي في سُعُودِ
وَلَعَلّي مُؤمِّلٌ بَعْضَ ما أبْ
لُغُ بالّلطْفِ مِنْ عَزِيْزٍ حَمِيْدِ
لِسَرِيٍّ لِباسُهُ خَشِنُ القُطْ
نِ ومَرْوِيُّ مَرْوَ لِبْسُ القُرُودِ(١)
عِشْ عَزِيزاً أو مُتْ وأنتَ كَرِيْمٌ
بَيْنَ طَعْنِ القَنا وَخَفْقِ البُنُودِ(٢)
فَرُؤوسُ الرماحِ أَذْهَبُ للغَيْ
ظِ وأشفى لِغلِّ صَدْرِ الحَقُودِ(٣)
لا كما قَدْ حَيِيْتَ غَيْرَ حَمِيْدٍ
وإذا مُتَّ مُتَّ غيرَ فَقِيْدِ
فَاطْلُبِ العِزَّ في لَظَى وَدَعِ الذّ
لَّ وَلَوْ كان في جِنَانِ الخُلُودِ

---

(١) السري: الشريف، يعني نفسه، المروي: ثياب نسبة إلى مرو وهي بلد بفارس.

(٢) البنود: الأعلام الكبيرة. القنا: الرماح.

(٣) الغل: الحقد.

لا بِقَوْمي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بي
وبنفسي فَخَرْتُ لا بجدودي
وبهِمْ فَخْرُ كلّ مَنْ نَطَقَ الضا
دَ وَعَوْذُ الجاني وغَوْثُ الطريدِ[1]
إنْ أكُنْ مُعجَباً فَعُجْبُ عَجِيبٍ
لم يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيْدِ
أنا تِرْبُ النّدَى وَرَبُّ القوافي
وسِمَامُ العِدَى وغيظُ الحسودِ
أنا في أمّةٍ تَدَارَكَهَا اللّـ
ـهُ غَرِيْبٌ كَصَالِحٍ في ثمودِ

ما المجد إلّا السيف والفتكة البكر

قال المتنبي هذه القصيدة يمدح علي بن أحمد الأنطاكي، وهي من البحر الطويل

أطاعِنُ خَيْلاً مِنْ فوارِسَها الدّهْرُ
وَحِيْداً وما قَوْلي كذا وَمَعِي الصبْرُ
وأشجعُ مِنّي كلَّ يَوْمٍ سَلامتي
وَمَا ثَبَتَتْ إلاَّ وفي نَفْسِها أَمْرُ
تَمَرّسْتُ بالآفاتِ حتى تَرَكْتُهَا
تقولُ أماتَ الموتُ أمْ ذُعِرَ الذُعْرُ

(١) نطق الضاد: العرب. العوذ: اللجوء والحماية. الغوث: النصرة.

وأَقْــدَمْــتُ إقــدامَ الأتــيِّ كــأنّ لــي
سِوى مُهْجَتي أو كان لي عنـدها وِتْـرُ[1]
ذرِ النَفْسَ تـأخـذْ وُسْعَهـا قَبْـلَ بينهـا
فَمُفْتَـرِقٌ جـارانِ دارُهُمَـا الـعُمْـرُ[2]
ولا تَـحْـسَبَـنَّ الـمجـدَ زِقـاً وَقَـيْـنَـةً
فمـا المجـدُ إلّا السيفُ والفتكـةُ البِكـرُ
وتَـضْـرِيْبُ أَعْـنَـاقِ الـملوكِ وأن تُـرى
لَكَ الهَبَواتُ السـودُ والعسكرُ المجْـرُ[3]
وتَـرْكُـكَ في الـدنيـا دَويـاً كـأنّـمـا
تَـداوَلَ سَـمْـعَ المـرْءِ أَنْـمُلُهُ الـعَشْـرُ
إذا الفَضْلُ لم يَرْفَعْكَ عَنْ شُكْرِ نـاقِصٍ
على هِبَـةٍ فـالفضـلُ فيمَنْ لَـهُ الشّكْـرُ
ومن يُنْـفِقِ السـاعـاتِ في جمـعِ مـالِـهِ
مَخَـافَـةَ فَقْـرٍ فـالـذي فَعَـلَ الفَـقْـرُ
عَـليّ لأهــلِ الــجـوْرِ كُـل طِـمِـرَّةٍ
عليهـا غُـلَامٌ مِـلْءُ حَيْـزُومِـهِ غِمْـرُ[4]

---

(١) الوتر: الثأر.

(٢) ذر: دع. الوسع: الطاقة. الجاران: قصد بهما الجسد والروح.

(٣) الهبوات: الغبرات. المجر: الكثير.

(٤) الطمرة: الفرس الوثابة. الحيزوم: الصدر. الغمر: الحقد.

يُـدِيْـرُ بـأطـرافِ الـرمـاحِ عَـلَيْـهِـم
كؤوسَ المنـايـا حَيْثُ لا تُشْتَهى الخَمْـرُ
وكمْ من جبـالٍ جبْتُ تشـهـدُ أنني الـ
ـجبـالُ وبَحْـرٍ شـاهـدٍ أنني البَحْـرُ[1]
وخَـرْقٍ مكـانُ العَيْسِ منـه مكـانُنـا
مِنَ العيسِ فيـه واسطُ الكورِ والـظهْـرُ
يَـخِـذْنَ بـنـا فـي جَـوْزِهِ وكـأنّـنَـا
عـلى كُـرّةٍ أو أرضُـهُ معنـا سَـفْـرُ[2]
ويَـوْمٍ وَصَـلْنَـاهُ بـليـلٍ كـأنّـمـا
عـلى أَفْقِـهِ مِـنْ بَـرْقِـهِ حُـلَلٌ حُـمْـرُ
ولَـيْـلٍ وصـلنـاهُ بِـيَـوْمٍ كـأنّـمـا
على مَتْنِـهِ مِنْ دَجْنِـهِ حُلَلٌ خُـضْـرُ[3]
وَغَـيْـثٍ ظَـنَـنّـا تَـحْـتَـهُ أنَّ عـامـراً
عـلا لم يَمُتْ أو في السَحَـابِ لـه قَبْـرُ
أوِ ابن ابنـه البـاقي عَـليَّ بن أَحْـمَـدٍ
يَجُـودُ بـه لـو لم أُجَـزْ ويـدي صِفْـرُ

---

(١) جبت: اجتزت.
(٢) يخدعن: يسرعن. جوزه: وسطه.
(٣) الدجن: تلبد السماء بالغيوم.

وإنَّ سَحَاباً جُوْدُهُ مِثْلُ جُوْدِهِ
سَحَابٌ على كُلِّ السحابِ له فَخْرُ
فَتىً لا يَضُمُّ القلبُ هِمّاتِ قَلبِهِ
وَلَوْ ضَمّها قَلْبٌ لما ضمهُ صَدْرُ
ولا يَنْفَعُ الإمكانُ لولا سَخاؤه
وَهَلْ نافعٌ لولا الأكفُّ القنا السُمْرُ[1]
قِرانٌ تلاقى الصَّلْتُ فيه وعَامِرٌ
كما يتلاقى الهِنْدُوَانيُّ والنَصْرُ[2]
فجاءَ به صَلْتَ الجبينِ مُعَظَّماً
تَرى الناسَ قُلاً حَوْلَهُ وهُمُ كُثْرُ
مُفَدّىً بآباءِ الرجالِ سَمَيْذَعاً
هُوَ الكرمُ المدُّ الذي مالهُ جَزْرُ[3]
وما زلتُ حتى قادني الشوقُ نحوه
يُسَايِرُني في كُلِّ ركْبٍ له ذِكرُ
وأَسْتَكْبِرُ الأخبارَ قبلَ لِقَائِهِ
فلما التقينا صَغّرَ الخَبَرَ الخَبرُ

(١) الإمكان: أي اليسر. السمر: من صفات الرماح.
(٢) الصلت: جد الممدوح لأمه. عامر: جده لأبيه. الهندواني: السيف المنسوب إلى الهند.
(٣) السميذع: الكريم.

إليــكَ طَعَنّــا في مَــدَى كُــلِّ صَفْصَـفٍ
بِـكُــلِّ وآةٍ، كُــلُّ مــا لَقِيَــتْ نَـحْــرُ[1]

إذا وَرِمَــتْ مِنْ لَـسْـعَــةٍ مَــرِحَـتْ لـهــا
كــأنَّ نَــوالاً صَــرَّ في جِلْدِهَــا النَّبْــرُ[2]

فجئنـاكَ دُوْنَ الشمسِ والبـدرِ في النـوى
ودونَــك في أحـوالِــكَ الشمسُ والبــدرُ

كــأنـكَ بَــرْدُ الــمــاءِ لا عـيشَ دونَــهُ
ولــو كُنْتَ بَـرْدَ المــاءِ لم يكُنِ العِشْـرُ[3]

دعــاني إليــكَ العلمُ والحلمُ والـحجـى
وهــذا الكـلامُ النـظمُ والنـائِـلُ النَّثْــرُ

ومــا قـلتُ من شِـعْــرٍ تـكــادُ بيــوتُــهُ
إذا كُـتِبَـتْ يَبْـيَضُّ من نــورهــا الـحبــرُ

كــأنَّ المعــاني في فصــاحــةِ لفــظهــا
نجــومُ الثـريــا أو خــلائقُــكَ الــزُّهــرُ

وجـنبـني قُــرْبَ الســلاطيـن مَقْـتُهــا
ومــا يقتضيني مِنْ جمــاجـمهــا الـنَّسْــرُ

---

(١) الصفصف: الأرض المستوية. الوآة: السريعة الشديدة.

(٢) النبر: دويبة تلسع الإبل.

(٣) العشر: ورود الإبل على الماء كل عشرة أيام وهو أشد حالات الظمأ عندها.

وإنّي رأيتُ الضُرَ أحسنَ منظراً
وأَهْوَنَ من مرأى صغير به كِبْرُ[1]
لساني وعيني والفؤاد وهمتي
أوُدُّ اللواتي ذا اسمُها منك والشَطْرُ
وما أنا وحدي قلتُ ذا الشعر كله
ولكن لشعري فيك مِنْ نفسه شعرُ
وماذا الذي فيه مِنَ الحسن رونقاً
ولكنْ بدا في وجهه نحوكَ البِشْرُ
وإني ولو نِلْتَ السماءَ لعالمٌ
بأنكَ ما نِلتَ الذي يوجبُ القَدْرُ
أزالتْ بكَ الأيامُ عَتْبي كأنما
بَنُوها لَهَا ذَنْبٌ وأَنْتَ لها عُذْرُ

وإذا أتتك مذمتي من ناقص

يمدح المتنبي، في هذه القصيدة، القاضي أبا الفضل أحمد بن عبد الله بن الحسين الأنطاكي

لك يا منازِلُ في القلوب منازلُ
أقفرت أنت وهن منك أَوَاهِلُ[2]

---

(١) الضر: الفقر وسوء الحال.
(٢) الأواهل: ذوات الأهل.

يَـعْـلَمْـنَ ذاكِ ومـا عـلمـتِ وإنّـمـا
أولاكـمـا يُبْـكَـى عـلـيـه الـعـاقـلُ[1]
وأنــا الــذي اجـتلب الـمنيــة طـرفُـهُ
فـمن الـمُـطالَبِ والـقتيـل القـاتِـلُ[2]
تـخـلو الـدِّيـارُ مِـنَ الـظبـاء وعـنـده
مــن كــلِّ تـابِـعَــةٍ خـيـال خـاذلُ[3]
الــلاّءِ أفْـتَكُـهـا الـجبـان بـمُـهـجَـتي
وأحـبـهـا قُـرْبـاً إلـيّ الـبـاخـلُ[4]
الـرّامِـيـاتُ لـنـا وهُـنّ نَـوَافِـرٌ
والـخـاتـلات لـنـا وهـن غـوافـلُ[5]
كـافـأنـنـا عن شـبـهِـنّ من الـمَـهَـا
فـلهُنّ فـي غيـر الـتـرابِ حَـبَـائِـلُ[6]

---

(١) ذاكِ: خطاب للمنازل.

(٢) المنية: الموت. الطرف: البصر.

(٣) الظباء: الغزلان. التابعة: الظبية الصغيرة تتبع أمها. الخاذل: الذي تخلف عن القوم ولم يسرع لنصرتهم.

(٤) اللاء: بدل من الظباء وهي بمعنى اللواتي. افتكها: أكثرها إيذاء وإيجاعاً.

(٥) الخاتلات: اللواتي يؤذين عن غير قصد منهن اثناء غفلتهن.

(٦) المها: بقر الوحش وهو يمتاز بجمال العيون. الحبائل: جمع حِبالة وهي الشرَك، الفخ، ينصب للصيد.

مـن طـاعنـي ثُـغَـر الـرجـال جـآذرٌ
ومـن الـرمـاح دمـالـج وخـلاخـل[١]

ولـذا اسْمُ أعـطيـة العيـون جفـونهـا
من أنهـا عمـل السيـوفِ عَـوَامِـلُ[٢]

كمْ وقفـةٍ سَجَـرَتْـكَ شَـوْقـاً بَعْـدَمـا
غَـرِيَ الـرقيب بنـا وَلَـجَّ العَـاذِلُ[٣]

دونَ الـتَّعـانُـقِ نـاحلين كَشَكْـلَتَـيْ
نـصـبٍ أدَقَّـهُـمَـا وضَـمّ الـشَّـاكِـلُ[٤]

إنْـعَـمْ ولَـذّ فـللأمـور أواخِـرٌ
أبَـداً إذا كـانـت لـهُـنَّ أَوَائِـل[٥]

---

(١) الثَغَر: جمع ثغرة وهي نقرة النحريين الترقوتين وهما ما يربطان الصدر برأس الكتف إلى طرف الذراع. الجآذر: صغار بقر الوحش وواحدها جؤذر. الدمالج جمع دملج وهو زينة معدنية توضع في العضد. والخلاخل من الخلخال الذي يوضد في الكرعوب.

(٢) الجفون: الشعر ينبت على حواشي العين.

(٣) سجرتك: ملاتك وألهبتك. ويروي شجرتك أي حبستك: منعتك عن الكلام. ويروى: سحرتك: أي جذبتك إليها لسحرها وجمالها. وغري به: أولع بحبه، اللجاج: التمادي في المماحكة.

(٤) الشاكل: الذي يرسم شكل الكتاب.

(٥) لذّ: تمتع مستأنساً.

مـا دُمْـتَ مـن أرَبِ الـحِـسـانِ فـإنـمـا
رَوْقُ الـشـبـاب عـلـيـك ظِـلٌّ زائـل[1]

لـلّهْـوِ آوِنَـةٌ تَـمُـرُّ كـأنَّـهَـا
قُـبَـلٌ يُـزَوِّدُهـا حَـبِـيْـبٌ رَاحِـلُ[2]

جَمَـعَ الـزمـانُ فـلا لَـذِيْـذٌ خـالِصٌ
مِـمَّـا يَـشُـوبُ ولا سُـرُورٌ كـامِـلُ[3]

حتى أبـو الـفَضْـلِ ابنُ عبـدِ الله رُؤ
يَتُـهُ المُـنى وهـي المَـقـامُ الهَـائِـلُ[4]

مَـمْـطُورَةٌ طُـرُقـي إلـيـهـا دُوْنَـهـا
مِـنْ جُـوْدِهِ فـي كُـلِّ فَـجٍّ وَابِـلُ

مَـحْـجُـوبَـةٌ بِـسُـرادِقٍ مِـنْ هَـيْـبَـةٍ
تَـثْـنـي الأزِمّـة والـمـضـيُّ ذَوَامِـلُ

لـلشّـمسِ فـيـهِ ولـلسّحـابِ ولـلبحَـا
رِ ولـلأسـودِ ولـلريـاحِ شـمـائِـلُ[5]

---

(١) الأرب الحاجة. روق الشباب: أوله وأفضله.

(٢) الآونة: اللحظة.

(٣) الجامح: من لا يمكن رده. يشوب: يخالط.

(٤) أبو الفضل: كنية الممدوح.

(٥) شمائل: خلق وطباع.

لــو لم يَهَــبْ لجـبَ الــوفــود حــوالَــهُ

لَسَرَى إليــه قــطا الفــلاة الـنــاهــلُ[1]

يَــدْري بِـمَــا بِــكَ قَبْــلَ تُــظْهِــرُهُ لَــهُ

مِــنْ ذِهْــنِــهِ قَــبْــلَ تــسَــائِــلُ

وتــراه مُــعْــتَــرِضــاً لــهــا وَمُــوَلِّــيــاً

أَحــدَاقُــنَــا وَتَــحَــارُ حِيْــنَ يُــقَــابِــلُ[2]

كــلمــاتُــهُ قُــضُــبٌ وَهُــنَّ فَــوَاصِــلٌ

كُــلُّ الضــرائبِ تَحْتَــهُنّ مَــفَــاصِــلُ[3]

هَــزَمَــتْ مَكَــارِمُــهُ الــمكــارِمَ كُــلّهــا

حــتى كــأنّ الــمكْــرُمَــاتِ قــنــابِــلُ[4]

وَقَــتَــلْتَ دَفْــراً والــدّهَــيْــم فــمــا تَــرَى

أُمُّ الــدُهَــيْــمِ وأُمُّ دَفْــرٍ ثــاكِــلُ[5]

---

(١) اللجب: الضجيج. الوفود: الوافدون لطلب العطاء. الناهل: الوارد على الماء.

(٢) الحدقة: معظم السواد من العين.

(٣) القضب: السيوف. فواصل: قواطع. الضرائب: جمع ضريبة وهو المضروب بالسيف.

(٤) القنابل: جمع قنبلة وهي المجموعة من الثلاثين حتى الأربعين فرساً.

(٥) يقولونَ عن المصيبة أم دفر وأم الدهيم، ومعنى الدفر النتن، كنيت المصيبة بها لنتنها. الرهيم: ناقة كانت لعرم بن الريان الذهلي قتل هو وأخوته وحملت رؤوسهم عليها فصارت مثلاً في الشؤم.

عَـلاّقـةُ الـعُـلَمـاءِ والـلُّجُّ الـذي
لا يَـنْـتَـهـي ولِـكُـلِّ لُـجٍّ سـاحِـلُ
لَـوْ طـابَ مَـوْلِـدُ كُـلِّ حَـيٍّ مِثْـلَهُ
وَلَـدَ الـنـسـاءُ ومـا لَـهُـنَّ قَـوَابِـلُ
لـو بـانَ بـالـكَـرَمِ الجنينُ بيـانَـهُ
لَـدَرتْ بـه ذَكَـرٌ أم انثى الحـامِـلُ
لِيَـزِدْ بَنُـو الحَسَنِ الشِّـرافُ تَـواضُعـاً
هَيْهَـاتِ تُكْتَـمُ في الـظَلاَمِ مَشَـاعِـلُ
جَفَخَـتْ وَهُمْ لا يَـجْفَخُـونَ بِهـا بِـهِمْ
شِيَمٌ عـلى الـحَسَبِ الأغَـرِّ دَلائِـلُ[1]
مُتَشَـابِـهُـو وَرَعِ النُفُـوسِ كَبِيْـرُهُمْ
وَصَغِيْـرُهُـمْ عَـفُّ الإزارِ حُـلاحِـلُ[2]
يـا افخـرَ فـإنَّ النـاسَ فيـكَ ثَـلاثـةٌ
مُـسْـتَـعْـظِمٌ أو حَـاسِـدٌ أو جَـاهِـلُ
وَلَـقَـدْ عَلَوْتَ فَـمَـا تُـبَـالـي بَـعْـدَمـا
عَـرَفُـوا أَيَـحْـمَـدُ أم يَـذُمّ الـقَـائِـلُ
أثـني عَـلَيْـكَ وَلَـوْ تَـشَـاءُ لـقُلتَ لـي
قَـصَّـرْتَ فـالإمسـاكُ عـنـي نـائِـلُ

(١) جفخت: فخرت وتكبرت. الشيم: الأخلاق والطبائع.
(٢) الحلاحل: السيد الركين.

لا تَجْسُرُ الفصحاءُ تُنْشِد هَهُنا
بَيْتاً ولكنِّي الهزبرُ الباسِلُ[1]
ما نَالَ أَهْلُ الجاهلية كُلُّهُمْ
شِعْرِي ولا سَمِعَتْ بسحري بابلُ[2]
وإذا أَتَتْكَ مذمتي مِنْ ناقصٍ
فهي الشَّهادَةُ لي بأنِّي كاملُ
مَنْ لي بِفَهْمِ أُهَيْلِ عَصْرٍ يَدّعي
أنْ يحْسُبَ الهنديَّ فيهمْ باقِلُ
وأمَا وحَقّكَ وَهْوَ غايَةُ مُقْسِمٍ
لَلْحَقُّ أَنْتَ وَمَا سِواكَ الباطِلُ
الطّيْبُ أَنْتَ إذا أصابَكَ طِيْبُهُ
والماءُ أَنْتَ إذا أغتسلتَ الغاسِلُ
ما دارَ في الحَنَكِ اللِّسانُ وَقَلَّبَتْ
قَلَماً بأحْسَنَ مِنْ ثَنَاكَ أنامِلُ

(١) الهزبر: الأسد الشديد القوة.

(٢) بابل: مدينة مشهورة وقد اشتهرت بالسحر.

لا افتخار إلّا لمن لا يضام

قال المتنبي هذه القصيدة في مدح علي بن أحمد المري الخراساني وهي من البحر الخفيف

لا افتخارٌ إلّا لمنْ لا يُضامُ
مُدْرِكٍ أو مُحارِبٍ لا يَنَامُ

لَيْسَ عَزْماً ما مَرّضَ المرءُ فيهِ
لَيْسَ هَماً ما عاق عنه الظلامُ[1]

واحتمالُ الأذى ورؤيةُ جانبـ
ـه غِذَاءُ تَضْوَى به الأصيامُ[2]

ذَلَّ مِنْ يغبطُ الذليلَ بعيشٍ
رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ منه الحِمامُ

كُلُّ حِلْمٍ أتى بغيرِ اقتدارٍ
حُجّةٌ لاجىءُ إليها اللّئَامُ

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليه
ما لجرحٍ بميِّتٍ إيلامُ

ضاقَ ذرعاً بأنْ أضيقَ به ذَرْ
عاً زماني واستكرمتني الكرامُ

---

(١) مرّض: قصر.

(٢) تضوى: تهزل.

واقـفـاً تحـتَ أَخْـمَـصَـيْ قَـدْرِ نـفـسـي
واقِـفـاً تـحـتَ أخـمـصـيّ الأنـامُ[1]
أقـراراً ألـذُّ فَـوْقَ شـرارٍ
ومـرامـاً أبـغـي وظُـلمـي يُـرامُ
دون أن يَـشْـرَقَ الـحـجـازُ ونـجـدٌ
والـعـراقـانِ بـالـقـنـا والـشّـامُ[2]
شَـرَفَ الـجَـوِّ بـالـغُـبَـارِ إذا سـا
رَ عـلـيُّ بـنُ أحـمـدَ الـقـمـقـامُ
الأديبُ الـمـهـذَّبُ الأصـيـدُ الـضّـرْ
بُ الـذكيُّ الجَعْدُ السّرِيُّ الهُمَـامُ[3]
يـتـداوى مـن كـثـرة الـمـالِ بـالإقـ
ـلالِ جـوداً كـأنَّ مـالاً سـقـامُ
حَـسَـنٌ فـي عـيـونِ أعـدائـه أقـ
ـبـحُ مـن ضـيـفِـهِ رأتْـهُ الـسـوامُ
لـو حـمى سـيـداً من الـمـوتِ حـامٍ
لـحـمـاهُ الإجـلالُ والإعـظامُ

(١) الأخمص: ما لا يمس الأرض من باطن القدم.
(٢) شرّق: غصّ. العراقين: أي العراق العربي والعراق الأعجمي.
(٣) الأصيد: الملك الرزين. الضرب: الماضي في الأمور. الجعد: الكريم.

كُتِبَتْ في صحائِفِ المجدِ: بسمٌ
ثُمَّ قَيْسٌ وبَعْدَ قَيْسَ السّلامُ[1]
إنّما مُرّةُ بنُ عَوْفِ بنِ سَعْدٍ
جَمَرَاتٌ لا تشتهيها النَّعَامُ
لَيْلُها صُبْحُها مِنَ النارِ والإصـ
ـباحُ لَيْلٌ مِنَ الدُخانِ تِمَامُ[2]
هِمَمٌ بَلَغَتْكُمُ رُتَبَاتٍ
قَصُرَتْ عَنْ بُلُوغِها الأوهامُ
ونُفُوسٌ إذا انبرتْ لِقتالٍ
نَفِدَتْ قَبْلَ يَنْفَدُ الإقْدَامُ
وقُلوبٌ موطناتٌ على الرَّوْ
عِ كأنّ اقتحامَهَا استسلامُ
قائدو كلِّ شَطْبَةٍ وحِصَانٍ
قَدْ براها الإسراجُ والإلجامُ[3]
يَتَعَثَّرْنَ بالرؤوسِ كما مَرّ
بتاءاتِ نُطْقِهِ التَّمْتَامُ

(١) قيس قبيلة الممدوح. بسم: تفتتح بها الكتب، وتختتم بالسلام، أي لا يوجد في حكائف المجد إلاّ قيس.
(٢) ليل التمام: أطول ليالي الشتاء، وهو شديد الظلمة.
(٣) الشطبة: الفرس الطويلة. براها أنحلها.

طَـالَ غِـشْـيَـانُـك الـكـريـهـةَ حـتـى
قــال فِيكَ الـذي أقـولُ الحُسـامُ
وكَـفَـتْـكَ الـصـفـائـحُ الـنـاس حتى
قَـدْ كَـفَـتْـكَ الـصـفـائـحُ الأقـلامُ[1]
وكـفـتـكَ الـتَجـارِبُ الـفِـكْـرَ حـتـى
قَـدْ كـفـاكَ الـتـجـارِبَ الإلـهـامُ
فـارسٌ يـشـتـري بـرازَكَ لـلـفـخـ
ـرِ بـقَـتْـلٍ مُـعَـجَّـلٍ لا يُـلامُ
نـائـلٌ مـنـكَ نـظرةً سـاقَـهُ الـنـصْـ
ـرُ عـلـيـه لـفَـقْـرِهِ إنـعـامُ
خَـيْـرُ أعـضـائـنـا الـرؤوسُ ولـكـنْ
فَـضَـلَـتْـهـا بـقـصـدكَ الأقـدامُ
قَـدْ لَـعَـمـري أَقْـصَـرْتُ عـنـك ولـلوفـ
ـدِ ازدحـامٌ ولـلـعـطـايـا ازدحـامُ
خِـفْـتُ إنْ صِـرْتُ فـي يمـيـنـكَ أن تـأ
خُـذَنـي فـي هـبـاتِـكَ الأقـوامُ
ومِـنَ الـرُشْـدِ لـم أَزُرْكَ عـلـى الـقُـرْ
بِ، عـلى البُـعـدِ يُـعْـرَفُ الإلـمـامُ[2]

---

(١) الصفائح: السيوف العريضة الشفرات.

(٢) الرشد: الإصابة في الرأي. الإلمام: الزيارة.

ومِـنَ الـخـيـرِ بطءُ سَيْـبِـكَ عـنّـي
أسْـرَعُ السُّحْبِ في المسيـرِ الجهـامُ[1]
قُـلْ فَـكَـمْ مِـنْ جـواهـرٍ بـنـظامٍ
وُدُّهـا أنَّـهـا بـفـيـكَ كـلامُ
هـابَـكَ الـلَّيـلُ والـنّـهـارُ فـلو تـنـ
ـهـاهُـمـا لـم تَـجُـزْ بـكَ الأيّـامُ[2]
حَسْبُـكَ الله مـا تَـضـلُّ عـن الـحـ
ـقِّ ولا يـهـتـدي إلـيـكَ أثـامُ
لِـمَ لا تَـحْـذَرُ الـعـواقِـبَ فـي غـيـ
ـرِ الـدّنـايـا، أمـا عـلـيـكَ حَـرَامُ
كـم حَـبِـيْـبٍ لا عُـذْرَ لـلّـوْمِ فـيـه
لَـكَ فـيـه مِـنَ الـتُّـقـى لُـوّامُ
رَفَـعَـتْ قَـدْرَكَ الـنـزاهـةُ عَـنْـهُ
وَثَـنَـتْ قَـلْبَـكَ الـمـسـاعي الـجـسـامُ
إنّ بَـعْـضـاً مِـنَ الـقـريضِ هُـذَاءٌ
لَـيْسَ شـيـئـاً وبَـعْـضَـهُ أحـكـامُ[3]

---

(١) السيب: العطاء: الجهام: الذي لا ماء فيه.
(٢) تجز: تمر. هابك: خافك.
(٣) القريض: الشعر. الهذاء: الهذيان. الأحكام: جمع حكم بمعنى حكمة.

مِنْـهُ مـا يَجْلُبُ البـراعـةُ والـفضـ
ـلُ ومِـنْـهُ مـا يَجْـلُبُ البِـرْسَـامُ[1]

لكل امرىء من دهره ما تعوّدا

قال المتنبي هذه القصيدة يهنىء سيف الدولة بعيد الأضحى
وهما على فرسيهما، وهي من البحر الطويل

لِـكُـلِّ امـرىءٍ مِنْ دَهْـرِه مـا تَـعَـوَّدَا
وعـادةُ سَيْفِ الـدّوْلَـةِ الـطعنُ في العـدى

وأنْ يُـكَـذِبَ الإرجـافَ عـنـهُ بـضِـدهِ
ويُمسي بمـا تَـنـوي أعـاديـهِ أَسْعَـدَا

وَرُبَّ مُـريـدٍ ضَـرَّهُ ضَـرَّ نَـفْـسَـهُ
وَهَـادٍ إليـه الجيشَ أهـدى ومـا هـدَى

وَمُـسْـتَـكْـبِـرٍ لـم يـعـرفِ اللهَ سـاعـةً
رأى سَـيْـفَـهُ فـي كَـفِّـهِ فَـتَـشَـهّـدَا

هـو البحـرُ غُصْ فيـه إذا كـانَ سـاكنـاً
على الـدُّرِّ واحْـذَرْهُ إذا كـانَ مُـزْبِـدا

فـإنّـي رأيتُ البحـرَ يَـعْـثُـرُ بـالـفتـى
وهـذا الـذي يـأتـي الفتى مُـتـعَـمَّـدا

تَـظَلُّ مـلوكُ الأرضِ خـاشـعـةً لـه
تُـفَـارِقُـهُ هَـلْكَـى وتـلـقـاهُ سُـجّـدَا

(١) البرسام: مرض مجلب للهذي.

وَتُحْيِي لـه المـالَ الصـوارمُ والقَنَـا
وَيَقْتُـلُ مـا تحيـي التَّبَسّمُ والجَـدَا[1]

ذَكِـيٌّ تـظنيـه طـليعـةُ عَـيْـنِـهِ
يـرى قَلْبُـهُ في يـومِهِ ما تـرى غـدا

وَصُـولٌ إلـى المستصعبـاتِ بـخيـله
فلو كـان قـرنُ الشمسِ مـاءً لأورَدَا[2]

لـذلـك سَمّى ابنُ الـدُّمُستُقِ يَـوْمَـهُ
مـمـاتـاً وَسَمّـاهُ الـدُّمُستُقُ مَـوْلِـدَا

سـريتَ إلى جيحـانَ من أرضِ آمِـدٍ
ثـلاثـاً، لقـد أدنـاكَ ركضٌ وأبْعَـدَا[3]

فَـوَلّـى وأعـطاكَ ابـنَـهُ وجُـيـوشَـهُ
جميعـاً ولم يُعْـطِ الجميـع ليُحْمَـدَا

عَـرَضْتَ لَـهُ دُوْنَ الـحَـيـاةِ وَطَـرْفِـهِ
وأبـصـرَ سيـفَ اللهِ منـكَ مُـجَـرَّدَا

ومـا طَـلَبَتْ زُرْقُ الأسـنـةِ غَـيْـرَهُ
ولـكنّ قسـطنـطينَ كـان لـه الفِـدَى

(١) الصوارم: السيوف. القنا: الرماح. الجدا: العطاء.
(٢) قرن الشمس: أول ما يظهر منها عند الطلوع.
(٣) سريت: مشيت ليلًا. جيحان: اسم نهر رومي. آمد: بلد في العفور.

فـأصبَـحَ يَجْتَـابُ المُـسـوحَ مَخَـافَـةً
وَقَـدْ كـانَ يجتـابُ الـدِّلاصَ المسـرَّدَا[1]
ويمشي بـه العُكَازُ في الـديـرِ تـائبـاً
ومـا كـان يَـرْضَى مشيَ أشْقَـرَ أجْـرَدَا
ومـا تـابَ حتى غـادَرَ الكَـرُّ وَجْهَـهُ
جـريحـاً وَخَلّى جَفْنَـهُ الـنّقْـعُ أرْمَـدَا
هنيئـاً لـك العيـدُ الـذي أنتَ عيـدُهُ
وعـيـدٌ لِـمَـنْ سَـمّـى وضَـحّـى وَعَـيّـدا
ولا زَالَـتِ الأعـيـادُ لُبْسَـكَ بَـعْـدَهُ
تُـسَلِّمُ مـخـروقـاً وتُـعـطى مُـجـدَّدَا
فَـذَا اليـومُ في الأيـامِ مثْلُكَ في الـورى
كَمـا كُنْتَ فيـهمْ أَوْحَـداً كـانَ أَوْحَـدَا
هـو الجَـدُّ حتى تَفْضُـلَ العَيْنُ أختهـا
وحتى يَـكـون اليـومُ لـليـومِ سَيِّـدَا[2]
فيـا عَجَبـاً من دَائِـلٍ أَنْـتَ سَيْـفُـهُ
أمـا يَـتَـوقّـى شَـفْـرتَي مـا تـقـلَّدَا

(١) يجتاب: يلبس. المسوح: ثياب من الشعر.
(٢) الجد: الحظ.
(٣) الدائل: صاحب الدولة.

وَمَنْ يَجْعَلِ الضرغامَ للصيدِ بازَهُ
تَصَيَّدَهُ الضّرْغامُ فيما تَصَيّدَا
رأيتكَ مَحض الحلْمِ في محض قدرةٍ
ولو شِئْتَ كانَ الحلمُ منكَ المهنّدَا
وما قَتَلَ الأحرارَ كالعفوِ عَنْهُمُ
وَمَنْ لكَ بالحرِّ الذي يحفظ آليَدَا
إذا أنتَ أكرمتَ الكريم ملكتَهُ
وإنْ أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمردا
ووضع الندى في مَوْضِعِ السيفِ بالعلى
مضرٌّ كوضعِ السيف في موضعِ الندى
ولكنْ تفوقُ الناسَ رأياً وحكمةً
كما فُقْتَهُمْ حالاً ونفساً ومحتدا[1]
يدقُ على الأفكار ما أنت فاعلٌ
فيتركُ ما يخفَى ويُؤخذُ ما بدا
أزلْ حَسَدَ الحسادِ عَنِّي بكبتهمْ
فأنت الذي صيرتَهُمْ لي حُسّدَا
إذا شَدَّ زندي حُسْنُ رأيكَ فيهمُ
ضربتُ بسيفٍ يقطعُ الهامَ مُغْمَدَا

---

(١) المحتد: الأصل.

(٢) كبته: أذله.

وما أنا إلا سَمْهَرِيٌّ حَمَلْتَهُ
فَزَيَّنَ مَعْرُوضاً وَرَاعَ مُسَدَّدَا[1]
وما الدهرُ إلاّ من رواة قصائدي
إذا قلتُ شعراً أصبحَ الدهرُ مُنْشِدَا
فَسَارَ به مَنْ لا يسيرُ مُشَمِّراً
وَغَنَّى به مَنْ لا يُغني مُغَرِّدَا
أجزني إذا أنشدتَ شعراً فإنما
بشعري أتاك المادحونَ مُرَدَّدَا
وَدَعْ كلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صوتي فإنني
أنا الطائرُ المحكيّ والآخرُ الصدى
تركتُ السُّرَى خلفي لمن قلَّ مالُه
وأنعلْتُ أفراسي بنعماكَ عسجدا
وَقَيّدْتُ نفسي في ذَرَاكَ مَحَبّةً
ومَنْ وَجَدَ الإحسانَ قَيْداً تَقَيّدَا
إذا سألَ الإنسانُ أيامَهُ الغنى
وكنتَ على بُعْدٍ جعلناكَ مَوْعِدَا

(١) السمهري: الرمح. راع: خوّف. مسدداً: موجهاً إلى هدفه.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

مدح المتنبي سيف الدولة، في هذه القصيدة بمناسبة بنائه للحدث الحمراء. وهي من البحر الطويل

على قَـدْرِ أَهْـلِ العـزمِ تـأتي العـزائمُ
وتـأتـي على قَـدْرِ الكِـرَامِ المكـارمُ
وَتَعْـظُمُ في عـينِ الـصغـيـرِ صغـارهـا
وتَصْغُـرُ فـي عَيْـنِ العـظيـمِ العـظائـمُ
يُـكَلِّفُ سـيفُ الـدولـةِ الـجيشَ هَـمَّـهُ
وَقَـدْ عجـزتْ عنـه الجيـوشُ الخضـارمُ
وَيَـطْلُبُ عَنْدَ النـاسِ مـا عنـدَ نفسِـهِ
وذلـكَ مـا لا تَـدَّعِـيـهِ الـضـراغـم
يُـفَـدّى أَتَمُّ الـطيـرِ عـمـراً سِـلاحَـهُ
نُسُـورُ الفـلا أحـداثُهـا والقشـاعِمُ(١)
هَـلِ الحـدثُ الحمـراءُ تعرف لـونَهـا
وَتَـعْـلَمُ أيَّ الـسـاقـيينِ الـغـمـائـمُ(٢)
سقتهـا الغـمـامُ الغُـر قبـلَ نـزولـه
فلمـا دَنَـا منهـا سقتهـا الـجمـاجِـمُ

(١) القشاعم: المسنة.

(٢) الحدث: قلعة بناها سيف الدولة في بلاد الروم. الحمراء: إشارة إلى كثرة الدماء.

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا
ومَوجُ المنايا حولها متلاطمُ
وكانَ بها مِثْلُ الجنونِ فأصبحتْ
ومن جُثَثِ القتلى عليها تمائِم[1]
طريدةُ دَهْرٍ ساقها فرددتَهَا
على الدينِ بالخطيِّ والدهرُ راغمُ
تُفِيْتُ الليالي كلَّ شيءٍ أخذتَهُ
وَهُنَّ لِمَا يأخذْنَ مِنْكَ غَوارِمُ
إذا كانَ ما تنويه فعلاً مضارعاً
مضى قبل أن تُلقى عليه الجوازمُ
وكيفَ تُرَجّي الرّومُ والروسُ هدمَها
وذا الطعن آساسٌ لها ودعائمُ
وقد حاكموها والمنايا حواكمُ
فما ماتَ مظلومٌ ولا عاش ظالمُ
أتوكَ يجرونَ الحديدَ كأنّما
سروا بجيادٍ ما لهنَّ قوائمُ
إذا بَرَقُوا لم تُعْرَفِ البيضُ منهُمُ
ثيابُهُمُ مِنْ مثلها والعمائمُ

(١) التمائم: جمع تميمة وهو التعويذة.

خميسٌ بشـرق الأرضِ والغـربِ زَحفُـهُ
وفـي أُذنِ الـجـوزاءِ مـنـه زمـازمُ[1]
تـجـمـعُ فـيـه كـلَّ لِـسْـنٍ وأُمـةٍ
فَمَـا يُفْـهَمُ الـحُـدَّاثَ إلّا التـراجـمُ[2]
فـلله وقـتٌ ذَوَّبَ الـغِشَّ نـارُهُ
فـلم يَـبْـقَ إلّا صـارِمٌ أو ضُبَـارِمُ[3]
تَـقَـطَّعَ مـا لا يَقْـطَعُ الـدِّرْعَ والـقنـا
وَفَـرَّ مِـنَ الـفـرسـانِ مـن لا يـصـادِمُ
وقفتَ ومـا في المـوتِ شـكٌّ لـواقفٍ
كـأنـكَ في جَفْـنِ الـردى وهـو نـائمُ
تـمـرُّ بـكَ الأبـطالُ كلمى هـزيـمـةً
وَوَجْـهُـكَ وَضّـاحٌ وثـغـرُكَ بـاسِـمُ
تجـاوزتَ مقـدارَ الـشجـاعـةِ والـنهـى
إلى قـولِ قـومٍ أنتَ بـالغيـبِ عـالـمُ
تـدوسُ بكَ الخيـلُ الوكـورَ على الـذّرى
وقـد كثـرتْ حـولَ الـوكـورِ المـطاعمُ

(١) خميس: الجيش. الجوزاء: نجمان في وسط السماء. الزمازم: أصوات الرعود.
(٢) اللسن: اللغة. الحداث: المتحدثون.
(٣) فلله: الغش والشوائب التي تدخل على المعادن.

تـظنُ فِـراخُ الـفُـتْـحِ أنَّـكَ زُرْتَـهـا

بـأمّـاتـهـا وهـي الـعتـاقُ الـصـلادمُ

إذا زلـقـتْ مـشـيـتَـهـا بـبـطـونـهـا

كـمـا تتمشى في الـصـعيـدِ الأراقـمُ

أفـي كُـلِّ يـومٍ ذا الـدّمُسْتُقُ مـقـدمٌ

قَـفَـاهُ عـلى الإقـدامِ لـلوجْـهِ لائـمُ

أيـنـكـرُ ريـحَ الـليـثِ حـتـى يَـذُوقَـهُ

وَقَـدْ عَـرَفَتْ ريـحَ الليـوثِ البهـائـمُ

وَقَـدْ فـجعتـهُ بـابنِـهِ وابـنَ صـهـرِهِ

وبـالصهـر حَمْـلاتُ الأميـرِ الـغـواشـمُ

مضى يشكرُ الأصحابَ في فـوتِهِ الظُّبى

لمـا شَغَلَتْهـا هـامُهُمْ والـمعـاصِـمُ(١)

وَيَـفْـهَـمُ صَـوْتَ الـمشـرفيـة فـيـهـم

عـلى أنّ أصـواتَ الـسيـوفِ أعـاجـمُ

يُـسَـرّ بـمـا أعـطاكَ لا عَـنْ جَـهَـالَـةٍ

ولـكنْ مـغنـومـاً نـجـا مـنـك غـانـمُ

وَلَـسْـتَ مـليـكـاً هـازمـاً لـنـظيـرِه

ولـكـنـكَ الـتـوحيـدُ لـلشـركِ هـازمُ

---

(١) الظبي: حدود السيوف. الهام: الرؤوس. المعاصم: أطراف السواعد.

تَشَرَّفُ عَدنانٌ به لا ربيعةٌ
وتفتخرُ الدنيا به لا العواصمُ[1]
لَكَ الحمدُ في الدُّرِّ الذي لي لفظُهُ
فإنكَ مُعْطِيْهِ وإني ناظمُ[2]
وإنّي لتعدو بي عطاياكَ في الوغى
فلا أنا مذمومٌ ولا أنتَ نادمُ
على كلِّ طَيّارٍ إليها برِجْلِهِ
إذا وقعتْ في مَسْمَعَيْهِ الغماغمُ[3]
ألا أيها السيف الذي ليسَ مُغْمَداً
ولا فيه مُرْتَابٌ ولا منه عَاصِمُ[4]
هنيئاً لضربِ الهامِ والمجدِ والعُلَى
وراجيكَ والإسلامُ أنّكَ سالمُ
وَلِم لا يقي الرحمنُ حدّيكَ ما وقى
وتَفليقُهُ هامَ العِدَى بكَ دائمُ[5]

---

(١) عدنان: أبو العرب. ربيعة: قبيلة الممدوح.

(٢) الدر: يعني شعر المتنبي.

(٣) الغماغم: الأصوات المختلفة في الحرب.

(٤) العاصم: المانع.

(٥) تفليق: شق. الهام: الرؤوس.

عيد بأية حال عدت يا عيد

قال أبو الطيب هذه القصيدة عند خروجه من مصر وهو يهجو فيها كافور الإخشيدي. وهي من البحر الخفيف

عيدُ بأيّةِ حالٍ عدتَ يا عيدُ
بما مضى أم لأمرٍ فيك تجديدُ

أما الأحبةُ فالبيداء دونهم
فليْتَ دونك بيداً دونها بيدُ[1]

لولا العلى لم تجُبْ بي ما أجوب بها
وجناء حرف ولا جرداء قيدود[2]

وكان أطيبَ من سيفي مُعانَقةً
أشباهُ رونقِهِ الغيدُ الأماليد[3]

لم يترك الدهرُ من قلبي ولا كبدي
شيئاً تُتَيِّمُهُ عينٌ ولا جيدُ[4]

يا ساقِيَتَيَّ أخمرٌ في كؤوسكما
أم في كؤوسكما هم وتسهيد

---

(١) البيداء: الفلاة.

(٢) جاب: اجتاز، قطع. الوجناء: الناقة السريعة. الحرف: الصلبة. الجرداء: القصيرة الشعر. القيدود: الطويلة العنق.

(٣) الغيد: جمع غيداء وهي المتثنية ليناً. الأماليد: جمع املودة: المستوية القوام.

(٤) تيمه: استعبده الحب. الجيد: العنق.

أصخرةٌ أنا؟ ما لي لا تحركني
هذي المُدام ولا هذي الأغاريد[1]
إذا أردتُ كُمَيْتَ اللونِ صافيةً
وجدتُها وحبيبُ النفسِ مفقودُ[2]
ماذا لقِيتُ من الدنيا وأعجُبُهُ
أني لما أنا شاكٍ منه محمودُ
أمسَيْتُ أروحَ مُثْرٍ خازِناً ويداً
أنا الغنيُّ وأموالي المواعيد
إني نَزَلتُ بكذابين ضيفهُم
عن القِرَى وعن الترحال محدود[3]
جودُ الرجال من الأيدي وجودُهُم
من اللِسان فلا كانوا ولا الجود
ما يقبِضُ الموت نفساً من نفوسِهِمُ
إلا وفي يدِهِ مِنْ نتنها عودُ
أكُلَّما اغتالَ عبْدُ السوء سَيِّدَهُ
أو خانه فَلَهُ في مصرَ تمهيدُ[4]

(١) المدام: الخمر. الأغاريد: الأغاني.
(٢) الكميت: الأحمر يميل إلى السواد، كناية عن الخمرة.
(٣) القرى: القيام بواجب الضيف.
(٤) التمهيد: التسهيل والتبسيط.

صارَ الخَصِيُّ إمامَ الآبقين بها
فالحُرُّ مستعبَدٌ والعبدُ مَوْلُودُ[1]
نامتْ نواطيرُ مصرٍ عن ثَعَالبِها
فقدْ بشِمْنَ وما تَفْنَى العناقيدُ
العبدُ ليْسَ لحُرٍّ صالحٍ بأخٍ
لَوْ أنَّهُ في ثياب الحر مولود
لا تشترِ العبْدَ إلّا والعصا معه
إن العبيد لأنجاسٌ مناكيد[2]
ما كنتُ أحسبني أَحْيَا إلى زَمَنٍ
يُسِيءُ بي فيه عبدٌ وهو محمودُ
ولا تَوَهَّمْتُ أن الناسَ قد فُقِدوا
وأنّ مثل أبي البيضاء موجود[3]
وأن ذا الأسودَ المثقوب مِشْفَرُهُ
تُطِيعُهُ ذي العضاريطُ الرَّعاديدُ[4]
جوعان يأكل من زادي ويمسكني
لكي يقال عظيمُ القدْر مقصودُ

(١) الأبق: الهارب من سيده.
(٢) المناكيد: جمع منكود وهو قليل الخير.
(٣) أبي البيض: كناية عن تحقير كافور والاستهزاء به.
(٤) المشفر: شفة البعير. العضاريط: مفردها عضروط وهو الذي يخدم بطعامه. الرعاديد: مفرد رعديد وهو الجبان.

ويلُمّـها خطة ويلُمّ قابلها
لمثلها خُلِقَ المَهْرِيَّةُ القُودُ[1]

وعندها لذّ طَعْمَ الموتِ شاربُه
إن المنية عند الذُّلِّ قنديدُ[2]

من علَّمَ الأسودَ المخصيّ مكرمةً
أَقَوْمُهُ البيضُ أم آباؤه الصيد[3]

أمْ أذنه في يدِ النخاس دامية
أمْ قدرُهُ وهو بالفلسين مردود[4]

أوْلَى اللئامِ كويفيرٌ بِمَعْذِرَةٍ
في كل لُؤْمٍ، وبعضُ العُذْر تفنيد[5]

وذاك أن الفحول البيض عاجزة
عن الجميلِ فكيف الخِصْيَةُ السودُ[6]

---

(١) ويلمها: للتعجب وأصلها: وَيْ لِأمها. الخطة: الأمر، الشأن. المهْرية: الإبل المنسوبة إلى قبيلة مهرة من حيدان.
القود: جمع أقود وهو الطويل الظهر.

(٢) لَذّ: استطاب. القنديد: عسل قصب السكر والخمر.

(٣) الصّيد: جمع أصيد وهو الملك العظيم.

(٤) النخاس: تاجر العبيد.

(٥) اللئام: الناقصون لخسة. كويفير: تصغير كافور للتحقير. التفنيد: اللوم والتقريع.

(٦) الخصية: جمع خِصِي.

تمتع من سهاد أو رقاد

نالت الحمى أبا الطيب في مصر فقال هذه القصيدة واصفاً لها وعارضاً ما عاناه من آثارها وذاكراً ميله إلى الرحيل عن مصر وكان نظم هذه القصيدة في ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة، وهي من البحر «الوافر».

مَلُومُكُمَا يَجِلُّ عَنِ المَلامِ
وَوَقْعُ فِعَالِهِ فَوْقَ الكَلامِ

ذَرَانِي والفَلاةَ بلا دَلِيْلٍ
وَوَجْهِي والهَجِيرَ بلا لِثَامِ [1]

فإنِي أستريحُ بذي وهذا
وأتْعَبُ بالإناخةِ والمقامِ

عُيُونُ رواحلي إنْ حِرْتُ عيني
وَكُلُّ بُغَامِ رَازِحَةٍ بُغامي [2]

فَقَدْ أرِدُ المياهَ بغيرِ هَادٍ
سِوَى عَدِّي لها بَرْقَ الغمام

يُذِمّ لمهجتي رَبِّي وسيفي
إذا احْتاجَ الوحيدُ إلى الذِّمَامِ

(١) ذراني: اتركاني. الهجير: حر الهاجرة.

(٢) البغام: صوت الناقة إذا قطعت الحنين ولم تمده. رازحة: ساقطة من التعب.

ولا أُمْسي لأهلِ البُخْلِ ضيفاً
وليسَ قرىً سِوَى مُخِّ النَّعَامِ
ولمّا صارَ وُدُّ الناسِ خِبّاً
جَزَيْتُ على ابتسامٍ بابتسامِ[1]
وصرتُ أشكُ فيمن أصطفيه
لعلمي أنّهُ بعضُ الأنامِ
يُحِبُّ العاقلون على التصافي
وَحُبّ الجاهلينَ على الوسامِ
وآنفُ مِن أخي لأبي وأمي
إذا ما لم أَجِدْهُ من الكرامِ
أرى الأجدادَ تَغْلِبُها كثيراً
على الأولادِ أخلاقُ اللئامِ
ولستُ بقانعٍ من كلِّ فضلٍ
بأنّي أعزى إلى جَدٍّ هُمَامِ
عجبتُ لمن له قَدُّ وَحَدٌّ
وينبو نبوةَ القَضِمِ الكَهَامِ
ومَنْ يَجِدُ الطريقَ إلى المعالي
فلا يَذَرُ المطيَّ بلا سَنَامِ[2]

(١) الود: المحبة، الخب: الخداع.
(٢) السنام: الحدب البارز في البعير.

ولم أر في عيوبِ الناسِ شيئاً
كنقصِ القادرينَ على التمامِ
أقمتُ بأرضِ مِصْرَ فلا ورائي
تَخُبُّ بيَ الركابُ ولا أمامي[1]
وَمَلَّنِيَ الفراشُ وكانَ جنبي
يَمَلُّ لِقَاءَهُ في كُلِّ عَامِ
قليلٌ عائدي سَقِمٌ فؤادي
كثيرٌ حاسدي صَعْبٌ مَرَامي
عَلِيْلُ الجِسْمِ ممتنعُ القِيَامِ
شديدُ السُّكْرِ مِنْ غِيرِ المُدامِ
وزائرتي كأن بها حَيَاءً
فليس تزورُ إلّا في الظلامِ
بَذَلْتُ لها المطارِفَ والحشايا
فعافتها وباتتْ في عِظامي[2]
يضيقُ الجلدُ عن نَفسي وعنها
فَتُوسِعُهُ بأنواعِ السِّقامِ

(١) تخب: تسير بشكلمعين. الركاب: الإبل.
(٢) المطارف: الأردية الثمينة من الخز. والحشايا جمع حشية وهي الفراش المحشو.

كأنّ الصبحَ يطرُدُها فتجري
مَدَامِعُها بأربعةٍ سِجَامِ[1]
أراقبُ وَقْتَها مِنْ غيرِ شَوْقٍ
مُرَاقَبَةَ المشُوقِ المسْتَهَامِ
وَيَصْدُقُ وَعْدُهَا والصدق شَرٌّ
إذا ألقاكَ في الكُرَبِ العِظَامِ[2]
أبنتَ الدهر عندي كُلُّ بنتٍ
فكيف وصلتِ أنتِ من الزِّحامِ[3]
جَرَحْتِ مُجَرَّحاً لم يبقَ فيه
مَكَانٌ للسيوفِ ولا السِّهَامِ
ألا يا ليتَ شِعْرَ يَدي أتُمْسي
تَصَرَّفُ في عِنَانٍ أو زِمَامِ[4]
وَهَلْ أرمي هَوَايَ براقصاتٍ
محلاة المقاوِدِ باللغامِ
فَرُبَّتَمَا شَفيتُ غليلَ صدري
بِسَيْرٍ أو قَنَاةٍ أو حُسامِ

---

(١) السجام: المنسكبة.
(٢) الكُرَب: جمع الكرْب وهو المصاب والضيق.
(٣) بنت الدهر: مصيبته.
(٤) زمام الأمر: مقوده. العنان: اللجام.

وضاقت خَطّةٌ فخلصْتُ منها

خلاص الخمر من نسج الفِدّامِ[1]

وفارقتُ الحبيبَ بلا وَدَاعٍ

وودعتُ البلاد بلا سلام

يقولُ لي الطبيبُ أكلتَ شيئاً

وداؤك في شرابك والطعام

وما في طِبِّهِ أَنِّي جوادٌ

أضرَّ بجسمِهِ طولُ الجَمَامِ[2]

تعوَّدَ أن يُغبِّرَ في السرايا

ويدخل من قَتَامٍ في قتامِ[3]

فأُمسِكَ لا يُطالُ له فيَرْعَى

ولا هُوَ في العَليق ولا اللِّجَامِ[4]

فإن أمرض فما مرض اصطباري

وإن أُحْمَمْ فما حُمَّ اعتزامي[5]

(١) الفدام: المصفاة التي توضع على فوه الإبريق وهي من القماش.

(٢) الجمام: الراحة.

(٣) السرايا: جمع سرية وهي الفرقة من الجيش ويختلف عددها حسب تركيب الجنود وبرامج قياداتهم.

(٤) لا يُطال له: لا يرخى له الحبل ليتمكن من الرعي، والضمير إلى الحصان.

(٥) الإصطبار: من الصبر: القدرة على التحمل والثبات. أُحْمَم: أصاب بالحمى. الإعتزام: التصميم.

وإنْ أَسْلَمْ فما أبقى ولكن
سلمت من الحِمَام إلى الحِمام[1]
تمتعْ من سُهادٍ أو رُقادٍ
ولا تأمُلْ كرىً تحت الرِّجام[2]
فإنَّ لثالثِ الحالين معنى
سوى معنى انتباهِكَ والمَنَام[3]

(١) الحِمام: الموت. فهو إن سلم من الموت بسبب الحمى فلن ينجو منه بسبب اقتحامه للأهوال والأخطار.

(٢) السهاد: السهر وعدم النوم، الأرق. الكرى: النعاس. الرجام: جمع رجمة ويقصد بها حجارة القبر بعد أن يموت.

(٣) ثالث الحالين: الموت.

المحتويات

الموضوع	الصفحة

لا شـكّ أنّ القارىء العـربيّ بحاجـةٍ مـاسّـةٍ إلى الاطّـلاع على تراثـه الفكريِّ العـظيم المتمثّـل بـالأدب والتـاريخ والفـلسفـة والفقه وعلم الكلام وغيرِ ذلـك من ميادين الثقافة والمعرفة.

وبما أن تحصيل هذه المعرفة الموسوعية المتكاملة لا يكادُ يُتاحُ إلّا لأفراد قلائل من ذوي العقول المتميِّـزة والبصائر المتوقِّدة، كان لا بدَّ لنا من تقديم هذا التراث بشكلٍ مختصرٍ وجامعٍ في الوقت نفسهِ، بحيث يـوافق هذا الإطارُ المقْتَرَحُ أكثريةَ القرّاء العرب، وخاصة طلابَ المراحل الثانوية والجامعيـة. فكانت هـذه السلسلةُ عن أعلام الأدب من نثر وشعر، تولَّى كتـابتها مجمـوعةٌ من الاختصاصيين الذين تَحـرّوا فيها السـلاسةَ في الأسلوب والعمقَ في التحليل والاختصارَ في المعلومات، بما يحقّق الهدفَ المنشودَ من إصدارها.

كما نشير إلى أننا ـ بالإضافة إلى هذه السلسلة التي بين يديك عن أعلام الأدباء والشعراء ـ أصدرنا، وسنصدر تباعاً إن شاء الله مجموعاتٍ أخرى عن أعلام الفكر العربي والغربي في مختلف الميادين المعرفية، بنفس الأسلوب والمنهج اللذين اتبعناهما في إصدار هذه السلسلة. والله من وراء القصد.